

قطاع الثقافة

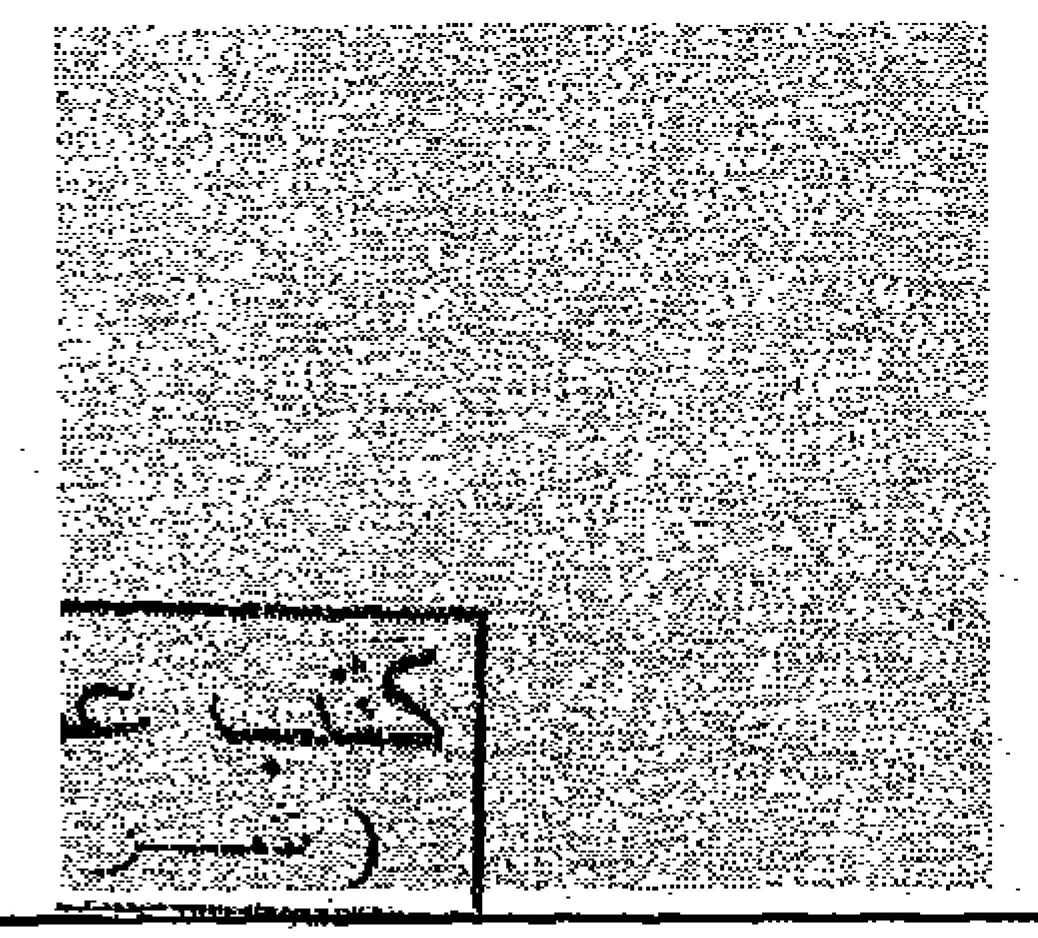
الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود

العنكبوت

دكتور مصطفى محمود

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

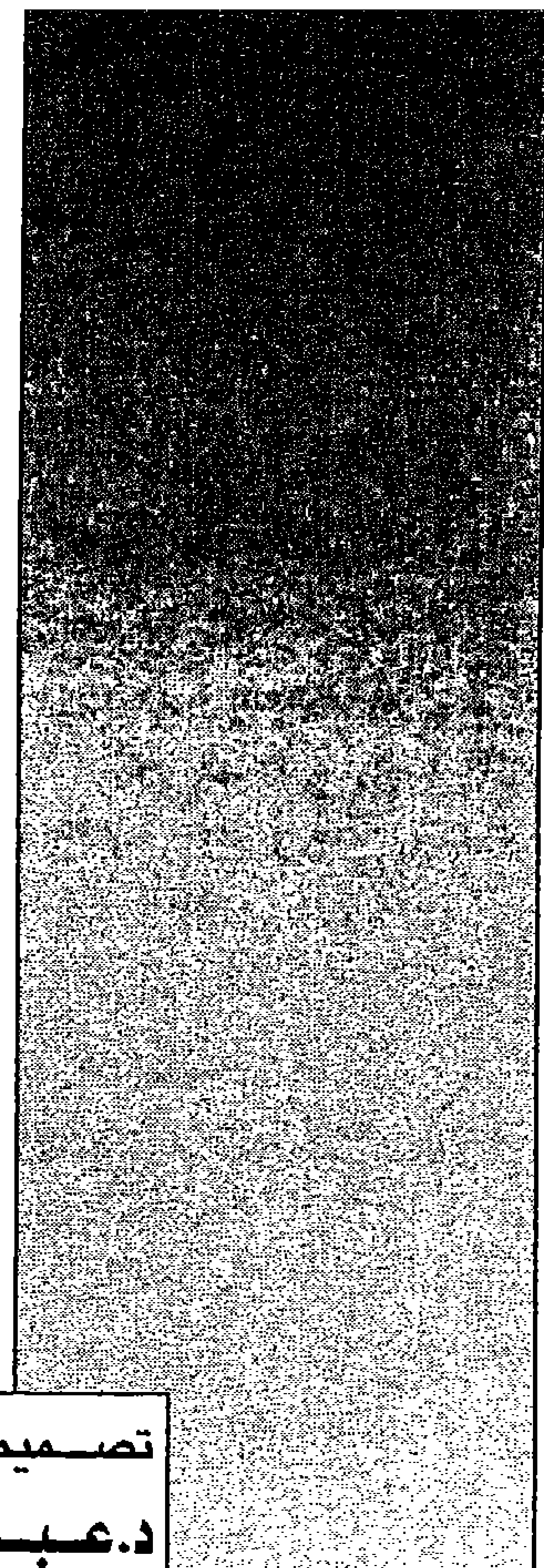


• العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom. org\ketab
• البريد الالكترونى
akhbar el yom@akhbarelyom. org

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

د. مصطفى محمود

العنكبوت



تصميم الغلاف :

د. عبد الكريم محمود

١

أنا الدكتــور م. داود دكتوراه فــى جراحة المخ والأعــصاب من جامعة برلين .. أخطو الآن نحو الستين من عمرى وإن كانت المرآة التى تطل علىَّ من ركن الدولاب تقول غير هذا .

تجاعيد .. وعظام بارزة .. وأنامل معروقة .. وبشرة مغضنة .. وخد هضيم .. وشعر أشيب .. وأجـفان وارمة .. وعينان حمراوان تطل منهما نـظرة مرتاعة . تلك النظرة المرتاعة دائمـاً .. كأنى كهل فى الثمانين يخطو خطوته الأخيرة نحو النهاية .

لا .. بل هو ذلك السر ..

ذلك الســـر الرهيب الذى ظـللت أحـملـه بين جنبى طـيلة هذه السنوات وأحمل معه تلك المسئولية الجسيمة .

وإلى متى ..؟!

لقد جاء الوقت .

نعم .. جـاء الوقت لأتكلم وأسطر فى هذه الأوراق خـفـايا هذه

السنوات الرهيبة التى عشتها .. وأكشف ذلك السر .

وليعذرنى مَنْ تقع فى يده هذه المذكرات إذا وقع على اصطلاح لم يفهمه .. وليغفر لى السرعة التى أكتب بها تلك الأوراق فما بقى فى العمر فسحة ..

وهأنذا أكتب الآن وأنا ألهث وأشعر بدبيب الموت يدب مع كل نبضة .. لكأنما الفناء سوف يلحقنى قبل أن أفرغ من كشف هذا السر الرهيب .. ولو حدث ذلك .. يا إلهى .. مَنْ يدرى ؟.. ربما عاشت الإنسانية أجيالاً أخرى من الظلمات قبل أن تتجلى تلك الحقيقة الثمينة فلا يكشفها أحد .. وتظل الحياة سراً مستغلقاً ملغزاً إلى الأبد .

ودعونى أبدأ .. فالقصة طويلة .

ولأبدأ من البداية ..

من عصر ذلك اليوم البعيد من ست سنوات .

●●●

فى شتاء عام ١٩٥٨ فى يوم أحد، غائم، رطب، فى غرفة الكشف بالعيادة وقد شربت قهوتى كالمعتاد حينما طرق الباب أول زائر ، شاب، نحيل، صفراوى النظرات ، ذو وجه شاحب .

كدت أقول له من اللمحة الأولى الشكوى التى يشكو بها .. وأصف له الدواء دون حاجة إلى فحص .

كان وجهه صفحة مكشوفة معروفة تنبىء عن مصران غليظ ومرارة وسوء هضم .. ذلك الثلاثى المألوف فى بلادنا.. ولكنه

لم يشك بأى شكوى من هذه الشكاوى وإنما قدم لى روشتة عليها تحويل من طبيب معروف .. وعلى الروشتة قرأت خمس كلمات :

اشتباه ورم فى المخ .. للفحص .. والعلاج .

ورم فى المخ ؟

ما الذى جعل الطبيب يفكر فى احتمال ورم بالمخ ؟

وسألته عن شكواه، فقال إنه يعانى صداعاً مزمناً وزغللة فى العين .. أعراض عادية يمكن أن توجد فى ألف مرض ومرض .

سوء الهضم يمكن أن يؤدى إلى صداع .. الإمساك المتكرر .. فقر الدم .. الجيوب الأنفية .. الأضراس التالفة .. ضغط الدم .. عدم استخدام النظارة فى القراءة .. إدمان الخمر .. القلق النفسى.. كل هذه أسباب يمكن أن تؤدى إلى صداع وزغللة . ما الذى جعل الطبيب يفكر فى ورم بالمخ ؟

هذا تشخيص خطير لا يصح فيه الأخذ بالشبهات .

ولم يكن أمامى وقت لأتساءل وأتأمل .

ومضيت فى الفحوص المألوفة .. كشف دقيق لقاع العين .. صورة أشعة للدماغ .. قياس ضغط للسائل الشوكى .. وإجراء رسم كهربائى للمخ .

ومن خلال منظار قاع العين مضيت أتأمل العصب البصرى .. والشبكية ، وكانت النظرة الأولى مؤكدة لظنى .. لم تكن هناك أى علامة من علامات ورم المخ وارتفاع ضغط السائل السحائى .. كان كل شىء يبدو طبيعياً ..

وتشجع المريض وهو يرى الابتسامة على وجهى وسألنى :

- كيف الحال يا دكتور ؟

- خير .. كل خير .. أنا لا أرى أمامى أى شىء .

- متشكر .

وسكت لحظة ثم عاد يقول فى اضطراب :

- ولكن الدكتور كان عنده اشتباه .

- أى اشتباه ؟ أنا لا أرى أمامى أى مرض مريب .. وعلى أى حال سأكشف عليك بالأشعة لتطمئن .

وبينما كانت الممرضة تجهز غرفة الأشعة ، كنت أكتب ملاحظاتى كالمعتاد فى ورقة الكشف .. وكان يجاوب عن أسئلتى وقد زال التوتر من نبراته .. وتراخت عضلات وجهه المنقبضة .

- اسمى راغب دميان ، مهندس كهرباء ، أقيم فى ١٥ شارع ابن الوليد بحدائق القبة ، أعمل حالياً فى وحدة أبحاث الراديوم فى قصر العينى ..

- متزوج ؟

فأجاب بابتسامة وهو ينظر إلى دبلة الخطوبة فى يده اليسرى:

- فى الطريق .

- منذ متى وهذه النوبات من الصداع تعاودك ؟

- منذ شهرين .

- كيف بدأت أول نوبة ؟

- كان ذلك فى ليلة أحد .. وما زلت أذكر اليوم والساعة وكأنها

حـدثت الآن .. كنت فى طريق عـودتى من السينـما والليل شـديد الظلام والقمر فى خسـوف كلى والأولاد يخبطون على الصفيح .. هذه العـقائد الخـرافيـة الشائعـة فى الأحيـاء البلدى .. وأنا أتلفت حـولى فى شـرود أفكر فى الفـيلم .. وأنظر حـولى فى البـيـوت والمآذن والحقـول فيـخيل إلىَّ أنهـا مرسـومة بالفـحم وأنها غـير حقـيقية .. وأرى الدنيـا كلها بعين حـالمة وسنانة فيخـيل إلىَّ أنها وهم.. خيال .. وأن ...

وكنت أكتب ما يقوله باخـتصار حينما سمعـته يسكت فجأة .. ورفعت وجهى لأراه يميل فى ضعف وهو يغطى عينيه .

وبعد لحظات كان فى غيبوبة تامة .. يتنفس بحشرجة ويتهته ، وقد اتسعت حـدقتاه كأنما يعانى فـزعاً هائلاً لا حد له ، وتشنجت أطرافه وتصلبت كأعواد من حديد .

وبينما كنت أقوم بإسعافه .. لاحظت أن أطرافه تسترخى شيئاً فشيئـاً .. وأن عينيه تنغلقان فى هدوء .. وأن فمه يتـحرك لتخرج منه كلمات واضحة لم تكن كلمات عربية .. ولكن كلمات أجنبية .

ولم أجد صعوبة فى اكتشاف أنها لغة أسبانية .

كان يتحدث فى غيبوبته بلغة أسبانية سليمة .. وكان يتكلم عن صديق له اسـمه « دون سبـاستيان كـاميللو » مصـارع فى حلبة ثيـران ، وكان يبـدو أنه على وشك البكاء .. وظلـت نبراته تخـفت حتى أصـبحت همـساً وفحـيحـاً مكتوماً .. ثم سكـت .. وتخضل وجهه بالدموع .

وكنت أنظر إليـه فى ذهول .. وقد شلت غـرابة المفاجـأة ذهنى وبعد دقائق رأيته يفتح عينيه .. وينظر إلىَّ كأنه عائد من عالم آخر وتدريجياً بدأت تظهر فى نظرته إشراقة الإدراك .

ثم رأيته يمسك بيدى فى رقة معتذراً ، وفى صوته رجفة :

– لقد رأيت بنفسك .. إنها النوبة .

والتقط أنفاسه ثم عاد يقول بصوت باك :

– إنها تفاجئنى فى أى مكان .. بدون إنذار .

وراح يفرك يديه فى استسلام .

وسألته :

– هل أخذت شهادتك من أسبانيا ؟

ونظر إلىَّ فى دهشة لسؤالى المفاجىء :

– لا .. أخذتها مـن مصر .. أنا لم يسبق لى أن سـافرت خارج القاهرة .

وقلت مندهشاً :

– ألم تتعلم الأسبانية ؟

وأجاب فى دهشة أكثر من دهشتى :

– أنا لا أعرف حرفاً واحداً فى الأسبانية .

ثم أردف فى ارتياب :

– لماذا تسأل هذا السؤال ؟

– لأنك طوال النوبة كنت تتكلم الأسبانية .

وبدا عليه أنه لا يفهم ما أقوله .. ونظر إلىَّ مذهولاً ..

كان من الواضح أنه لا يذكر حرفاً واحداً مما قاله فى أثناء غيبوبته وجلست أدون ملاحظاتى عن هذه النوبة العصبية الغريبة.. وقد تحرك فىَّ فضول لا حد له .

لم يكن ذلك الذى أراه أمامى .. حالة صداع .. ولا حالة ورم بالمخ .. وإنما حالة غامضة لا عهد لى بها .

فى ذلك اليوم لم أستطع أن أكشف على أى مريض آخر .

كان ذهنى قد توقف عند تلك الحالة الغريبة .

وكانت أفكارى تدور وتدور ثم تعود لتتركز عند راغب دميان ، وفى البيت لم أستطع أن آكل لقمتى دون أن أفكر .

وحينما ألقيت بجسمى آخر الليل على الفراش ظللت مفتوح العينين أفكر وأعيد النظر فى هذه الحالة الغريبة .

هل يمكن ؟

هل يمكن أن يجيد الإنسان لغة لم يتعلمها .

وإذا لم يكن هو الذى يتكلم ..

فمَنْ كان يتكلم ؟

وكيف يوجد اثنان فى جسد واحد ؟

هل هى الخرافة التى يسمونها المس الروحى ؟

غير معقول ..

هذه تخاريف لا يمكن أن تقال فى عصر الذرة .

لم أكن أعتقد فى شىء اسمه أرواح ، فأنا بحكم دراستى أعلم أن كل شىء حقيقى فى الدنيا يجب أن يكون قابلاً للإدراك

بالحواس .. أما ما لا يُرى ولا يُسمع ولا يُشم ولا يُحس ولا يُعقل فهو ببساطة غير موجود .

الحياة .. نظام .. وقوانين .. ومقدمات .. ونتائج .. وأسباب .. ومسببات .. لا مكان للتخمين والحدس .

لا مكان للتخريف .. وافتراض أشباح لا وجود لها .

نحن نعيش فى عالم منطقى معقول .. وما يحدث حولنا يمكن رصده فى إحصاءات ومعادلات ويمكن دراسته وملاحظته والتنبؤ به .

لا مكان لهذه التخاريف .

كنت أرفض بشدة هذا التدجيل .

ولكنى فى الواقع . فى أعماق نفسى . لم أكن مستريحاً .

كنت أشعر بأن ما قلته ليس هو كل الحقيقة .

نعم .. فهناك أشياء كثيرة غير مفهومة .

هذا الراديو « الترانزيستور » الصغير فى حضنى الذى لا يزيد حجمه على علبة كبريت يلتقط من الهواء كلمات .. هذه الكلمات كانت تسبح أمواجاً فى الفضاء .. ومن قبل أن أفتح هذا الراديو .. كانت هذه الأمواج تذرع الفضاء حولى .. لا تُرى .. ولا تُسمع .. ولا تحس .. ولا تلمس .. ومن قبل اختراع هذه العلبة الصغيرة السحرية .. كان الفضاء مشحوناً بهذه الموجات اللانهائية بدون أن تُدرك أو تُرى .. فهل معنى هذا أنها كانت دجلاً وهذياناً لا وجود له .

نحن فى العادة لا نعترف إلا بمــا نراه ونلمسه .. وهذا غرور . فما أقل ما نرى ، وما أقل ما ندرى فى هذه الدنيا .

هاهنا بين يدى فى هذا الراديو الصغير بنقلة يسيرة من المؤشر أسمع إشارات تلغرافية واضحـة من محطات مختلفة من العالم .. لو كـانت عندى شفـرتها لعـرفت ماذا تقـول .. ولكنى بدون هذه المعرفة لا تبدو هذه الإذاعات إلا مـجرد دقات وشوشرة .. وبالمثل هذا « الوش » الذى أسمعه حينما أحرك مؤشر الراديو مرة أخرى قد لا يكون وشاً .. قد يكون لغة أخرى لا أعرف شفرتها .

كانت فكرة عابرة .

ولكنها بدت لى مخيفة .

فقد بدأت الرياح تزمجر فى الخارج والجو يرعد .

وساءلت نفسى : هل هــى ضجة .. مجرد ضــجة .. أم أنها هى الأخرى لـغة ؟ وإشارات مـثل إشارات « مـورس » لهـا شفرتــها ومفتاحها ؟

نعم .. مَنْ يدرى .. ربما كانت لغـة كونية ومفـردات وكلمات .. كل ما فى الأمر أننا نجهل شفرتها .

وانفتحت ضلفـة النافذة فجأة ومرقت ريح باردة .. فـانتفضت فى مكانى ، وجـــذبت الغطاء فى رعب وأنا أنظـر إلى البـرق الذى شق ظلمة السماء كسيف لامع .

نعم ..

كل هذه الأحداث يمكن أن تكون لغة إلهية لا نعرف شفرتها ..

خلف هذه الظلمات المحجبة .. مَنْ يدرى .. كم من الأمواج والإشعاعات مما نعلم ، ومما لا نعلم !

وخلف هذا الصمت الأبدى .. وراء هذه المتاهات الشاسعة من الفضاء .. كم من الأصوات هناك مما لا نسمع .. ومن الأرواح ، ومن الأطياف ؟

وانتابنى ذعر .

وأخذت أتلصص بعينى من تحت الغطاء .. وقد بدت لى كل قطعة أثاث فى الغرفة السابحة فى الظلام وكأنها كيان له لغته وله روحه .

وتسلل الذعر إلى أوصالى فجمَّدها وشلَّها .

واستجمعت كل شجاعتى .. ومر وقت خلته ساعات وأنا أتسلل بأصابعى إلى زر النور لأضغط عليه .

وأضاءت الغرفة بنور باهر .. وتصبب العرق بارداً على جسدى .. وتنفست الصعداء .. وأنا أتلفت حولى فى قطع الأثاث المألوفة .

كانت كل قطعة فى مكانها .. جامدة ميتة كما عهدتها .. بلا روح.. كنت أتخيل أشياءً لا وجود لها .

يا رب ..

ومسحت عرقى وشعرت بالسعادة وأنا أنظر إلى غرفتى المألوفة وقد استقرت كل قطعة أثاث فيها خرساء لا تنطق .

كنت أشعر بالسعادة لأنى أنا الحى الوحيد فى هذا الموات .

أنا الذى أهدد هذا الوجود .. وهو لا يملك أن يهددنى .

أستطيع أن أحرك أى قطعة أثاث من مكانها وألقيها فى الشارع. ها هنا بيتى .. وغرفتى .. وأشيائى .. كلها ملكى .

وشعرت بأنى أسترد حريتى إزاء هذه المفردات الجامدة المتناثرة وعاودتنى الثقة بنفسى ..

وابتسمت ..

ثم ضحكت ..

ثم قهقهت فى عصبية على تلك الأفكار الهستيرية التى راودتنى . كانت سرحة مضحكة فعلاً .

كيف وصلت بى الفبركة إلى هذا المدى ..

إن الظلام والسكون والوحدة .. والأعصاب المتوترة .. يمكن أن تفعل بعقولنا الأفاعيل .

ولكن ..

ولكنى كنت مازلت أفكر . وقد تذكرت أحداث اليوم العصيب كله .

كانت القضية كلها ما زالت هناك بلا حل . ذلك المريض الغريب.. راغب دميان .

كان لا بد من تفسير ..

لم يكن فى إمكانى أن أنام دون أن أعثر على تفسير .

وأشعلت سيجارة .. وعدت أفكر فى هدوء وأتوسل بكل ما أعرف من محصول علمى فى جميع المجالات .

إن الأصوات .. جميع الأصوات فى هذا الكون لا تفنى .. وكل ألوان الطاقة يتحول الواحد منها إلى الآخر ولكنها لا تفنى .. الكهرباء تتحول إلى حركة والحركة إلى حرارة والحرارة إلى ضوء .

والكبريت حينما يحترق ويختفى هو فى الحقيقة لا يختفى ولكنه يتحول إلى غازات ونار وأبخرة .

كل شىء باق .. لا شىء يضيع فى هذه الدنيا .. وإنما هو يتحول ويتبعثر ويتشتت .

ولو أمكننا بطريقة ما أن نجمع ما يتشتت فى الكون ونعيده إلى صورته الأولى كما نجمع أمواج اللاسلكى من الهواء بجهاز الراديو الصغير ونعيدها إلى صورتها الصوتية الأولى .. لأمكننا أن نعرف الكثير .

لأمكننا أن نجمع من الفضاء صوت الإسكندر المقدونى .. ونسمع ما كان يقوله على أسوار عكا ..

نعم ..

مَنْ يدرى ..

هذا احتمال .. مجرد احتمال .. مجرد نظرية .

قد يكون فى مخ ذلك المريض العجيب .. راغب دميان .. توليفة عصبية خاصة تمكنه من جمع هذه الأصوات كما يجمع الراديو الأمواج اللاسلكية من الهواء ويعيد نطقها .

وقد يكون ما حدث لحظة الإغماء .. أن هذه التوليفة العصبية

جمعت من الهواء تلك الكلمات الأسبانية التى كانت مفقودة مشتتة فى الفضاء .. وأعادت نطقها .

نظرية خيالية ولكنها نظرية على أية حال .

وهى ليست بلا أساس ..

إنها بداية خيط .

بداية واهية .. ولكنها بداية .

واسترحت بعض الشىء ..

ومضيت أدندن فى النافذة .

وأدرت البيك آب .. ورحت أعبث فى صف الأسطوانات على الرف باحثاً عن موسيقى خفيفة تناسب وقت النوم .. ولكن الصف انفرط من يدى وسقط على الأرض .

وانكسرت أسطوانة قديمة ..

ورحت أجمع القطع المكسورة ..

وفى النور قرأت اسم الأسطوانة « بكائية أسبانية فى رثاء المصارع الأسبانى الشهير دون سباستيان » .

دون سباستيان ؟

نفس الاسم الذى نطق به الرجل وهو مغمى عليه !

ولم أفهم معنى هذا كله .

وكنت ما زلت أنظر فى قطع الأسطوانة المكسورة .. ويداى ترتجفان .



كنت أضع أمام مكتبى نتائج الأشعة والتحاليل والفحوص التى أجريتها ، وكنت أنظر إلى صور الأشعة صورة بصورة وأتمعنها بدقة .. وأمر بأصبعى على كل ركن فى الجمجمة التى تبدو ظلالها فى الصور .

لا أثر يقود إلى طريق تشخيص .. لا دليل .

الصور جميعها طبيعية .. الفحوص الإكلينيكية لا تلقى أى ضوء على الحالة . جميع الاختبارات تشير إلى شخص طبيعى مائة فى المائة . الأمل الوحيد الباقى كان الرسم الكهربائى للمخ .

ذلك الجهاز العجيب « الألكتروانكفالوجرام » الذى وصلنى من أمريكا منذ أيام .

كانت هنا فرصته الذهبية ليكشف عن إمكاناته .

ذلك الجهاز الذى يسجل النشاط الكهربائى للمخ ويرسمه على

شريط ، كل نبضة كهربائية تخرج من المخ ترتسم فى شكل ذبذبة على الشريط .

وكـان قلبى يدق بشـدة وأنا أستـخـرج الشـريط من الجهـاز وأبسطه أمامى وأفحصه بعدسة مكبرة ..

أخيراً ..

كـانت هناك تلك الذبذبة العـاليـة غـيـر الطبيـعـيـة تكاد تمزق التسجيل .

ذبذبة تبلغ قـوتها ٩٠ « مـيكرو فولت » تظهـر مرة كل ثانـية وسط الذبذبات الـعـادية القـصـيـرة التى تتـواتر بسـرعـة فى التسجيلات المألوفة .

وكـان من الواضح من شكل الذبذبة العـاليـة وتواترها البطىء المنتظم أنهـا لا تـدل على ورم مـخى أو صـرع أو التـهـاب أو أى مرض مخى معروف .

وعدت إلى مراجعى ونشراتى ومـجلاتى الطبية أبحث عن حالة مشابهة ولكنها كانت ساعات طويلة مضاعة .

لا إشارة من قريب أو من بعيد إلى سابقة مماثلة .

ما زلت فى مكانـى متروكـاً فى غموض حـيث بدأت .. لا خيط من ضوء .

بعد كل الفحـوص الطبية والتتبع الإكليـنيكى الدقيق .. ما زلت فى مكانى .

كل ما استطعت أن أكتشفه أن هناك شيئاً ما .

الرسام الكهربائى أكد لى أن هناك شيئاً ما فى مخ هذا الرجل.. ليس ورماً ولا مرضاً من الأمراض المعروفة التى درسناها ، ولكنه أيضاً ليس الطبيعة السوية للمخ العادى ..

فما هو ذلك الشىء ؟

هل أعود إلى تفسيراتى الفلسفية فأقول إنه مخ به توليفة عصبية خاصة مثل الراديو تلتقط الأمواج وتذيعها .

أم أنه لا مرض هناك ولا توليفة خاصة .. كل ما فى الأمر .. أن راغب دميان استمع إلى هذه الأسطوانة الأسبانية كما سمعتها عدة مرات، فرسبت معانيها وأسماؤها فى عقله الباطن وعاودته هذه المعانى والأسماء وهو مغمى عليه فراح يهذى بها فى إغمائه.. كما نهذى بذكرياتنا فى أحلامنا .

ولكنه لم يكن يهذى .

لقد كان يتكلم أسبانية سليمة ، ويروى أحداثاً وقعت لذلك المدعو « دون سباستيان كاميللو » .

وكانت فى الحديث حيوية مَنْ ينطق لغة يألفها وينطقها كما ينطقها أهلها .. لا بلبلة عقل يهذى .

كان فى الأمر شىء .

كل التفسيرات غير كافية .

كنت أغوص فى ألغاز متشابكة لا نهاية لها .. وأفكر وقد

انتهيت من مرضى العيادة .

وجلست أنتظر راغب دميان على ميعاد خاص .

واكتشفت فجأة أن ساعة كاملة مرت على ميعاده دون أن يحضر .. وهى ليست من عاداته ، فهو دقيق فى مواعيده .

وانتابنى قلق راح يتزايد شيئاً فشيئاً .

ورأيت نفسى أنتفض من مكانى واختطف المعطف من الشماعة وأسرع بالخروج .

وأمام المنزل ١٥ شارع ابن الوليد بحدائق القبة نزلت من العربة .. ورحت أتلفت .

كان هو نفس العنوان الذى أملاه لى فى ورقة الكشف .

سألت البواب عن شقة المهندس راغب دميان .. فقال إنها شقة ١٢ فى الدور العلوى .. آخر دور فى العمارة .

وكان المصعد معطلاً .. فصعدت ستة أدوار على رجلى .

كنت أصعد ببطء .

وأتوقف من درجة لأخرى لألهث وألتقط أنفاسى .

وبينما كنت أستند على درابزين السلم وأستريح لحظة .. لاحظت « سلسولا » من الماء نازلاً على درجات السلم من فوق .

وصعدت درجة درجة مع هذا « السلسول » الغريب وأنا أنظر إلى فوق فى فضول متطلعاً إلى مصدر هذا الماء .

وكان الماء ينزل بشــدة أكثر وأكثر ويتـصاعد منه البخـار كلما صعدت مقترباً من مصدره مما يدل على أنه يتدفق من مصدر ماء ساخن .

وأمام شقة ١٢ كان الماء والبخار ينسابان بشدة من تحت عقب الباب .

وانتابنى القلق . فهذه شقة راغب دميان .

ووضعت أصبعى على الجـرس فى اضطراب ، ودققت مرة ثم دقة أخرى طويلة .

ثم رحت أدق دقاً متوالياً بانزعاج ، وأخبط على الباب .

لا مجيب ..

لا صوت بالداخل سوى صوت حنفية مفتوحة يتدفق منها الماء بشدة .

ووقفت مسمراً فى مكانى نهباً لخيالات متضاربة .

ماذا يمكن أن يكون قد حدث .. ماذا يجرى بالداخل .

وما الواجب عمله .

أأظل واقفاً هكذا أم أكسر الباب .. أم أبلغ البوليس ؟

ولم أجد حلاً سوى أن أهرول نازلاً.. وأبلغ البوليس.

●●●

وأمــام الباب المكســور .. والشقــة الغــارقة فى طوفــان الماء ..

تقدمنا أنا وضابط البوليس إلى حيث يتدفق الماء .. من الحمام .

كان البانيو مملوءاً على آخره ، والحنفية مفتوحة .. والماء يسيل على جوانب « البانيو » ليملأ الشقة .. والسخان مشتعلاً .

وانتقلنا من الحمام إلى غرفة النوم .

وفى غرفة النوم .. فوجئنا بامرأة فى ملابسها الداخلية منحنية على التسريحة ، وفى يدها ملقاط حواجب .

وتقدم الضابط فى حذر ورفع رأسها .. كانت شاحبة ممتقعة اللون وعلى وجهها نظرة فزع هائلة .. وقد فارقت الحياة .

وأمسك الضابط بالتليفون ليبلغ النيابة والطبيب الشرعى . هل كانت جريمة قتل ؟

وكيف .. وبأى سلاح .. ولا نقطة دم واحدة .. ولا جرح .. ولا آثار خنق .. ولا دلائل عنف أو اشتباك دموى .

الأثاث مرتب .. مما يدل على أن الميتة كانت فى طريقها الطبيعى لتأخذ حماماً .. وأنها أشعلت السخان وفتحت الحنفية لتملأ البانيو.. وبينما كان البانيو يمتلىء كانت هى تجمِّل حواجبها بالملقاط أمام المرآة .

وكانت تجمِّل حواجبها فى هدوء وهى تنظر فى المرآة .. حينما حدث فجأة أن تولاها ذلك الفزع الهائل الذى قضى عليها .

ماذا رأت فى المرآة لتنقلب سحنتها كل هذا الانقلاب .

لم تكن تقلصات وجهها تقلصات ألم ، وإنما كانت تقلصات خوف .

كانت عيناها جاحظتين محملقتين .. وعند ركنى فمها .. تلك الحركة العضلية التى تدل على الرعب .

ولمحت فى أصبعها دبلة ذهبية .

لا شك أنها خطيبته التى قال إنه فى طريقه إلى الزواج بها .

ولكن أين هو ؟

أين كان طول الوقت ؟

صورته على التسريحة يبدو فيها أكثر امتلاءً ووسامة مما رأيته . لابد أنها صورة قديمة .

أهو على علم بما حدث فى شقته أم أنه لم يعلم بعد ؟

وأين هو الآن ؟

وتسللت إلى حجرات الشقة الأخرى .

حجرة صالون ستيل .. وحجرة أكل .. وحجرة مكتب أقرب إلى معمل منها إلى مكتب .. مكتب صغير منزو فى ركن ، وبقية الغرفة بها مائدة كبيرة مجهزة بحوض ومواقد بنزن ، وأرفف للمحاليل الكيميائية ، وأنابيب اختبار ، وأجهزة تقطير ، وميكروسكوب موديل حديث قوته التكبيرية تزيد على عشرة آلاف مرة .. وجهاز غريب معقد لم أفهمه .. أغلب الظن أنه محول كهربائى ذو جهد عالٍ .

تحت الميكروسكوب موجودة شريحة بالفعل .

ووضعت عينى على الميكروسكوب .

كانت الشريحة لنسيج حى غريب يبدو أنه نسيج جنينى .

ما الذى يجعل راغب دميان يمارس كل هذه البحوث المتشعبة فى الكيمياء والتشريح والباثولوجى والبكتريولوجى .. وهو كما ذكر لى فى العيادة مهندس كهرباء فى وحدة أبحاث الراديوم فى قصر العينى .. ما الذى يجعل بحوثه تمتد إلى كل هذه المجالات .

كنت أشعر بدهشة يمازجها الارتياب .

مَنْ هو ذلك المدعو راغب دميان ؟

وما حياته ؟

وماذا يعمل بالضبط ؟

كنت أكاد أشعر من فرط التفكير أن ورم المخ قد أصابنى أنا .

وكان الضابط طول الوقت منكفئاً على أرض الغرفة يفحصها .. ويدون أرقاماً وملاحظات فى نوتته .. وأنا أفكر بدون أن أصل إلى حل .

هل أقول للضابط إنه مريض من مرضاى .. وإنه حُوّل إلى عيادتى باشتباه ورم فى المخ ؟

أم تكون هذه الشهادة إفشاءً لأسرار ليس من حقى إفشاؤها .

إن ما يقوله المريض للطبيب سر حميم مثل الاعتراف الذى يقوله الخاطىء للقسيس ولا يصح إفشاؤه .

وأغلقت فمى وآثرت أن أفكر لنفسى .

وكان السكوت ثقلاً جديداً يضاف إلى همومى .

ولاحظت وأنا أنظر فى وجه المرأة المتقلص من الخوف .. أن نظرتها المرتاعة تذكرنى بوجه راغب دميان حينما داهمته نوبة الإغماء .

كانت النظرتان فيهما نفس التعبير .. ذلك الرعب المحير لكأنما أطلت العينان على سر رهيب مروع من تلك الأسرار المطلسمة وراء الطبيعة .

وكنت أشعر برجفة وأنا أطل فى العينين المفتوحتين .. وأغطى عينى بيدى .. حينما سمعت الضابط يقول :

– أنت تعرفه ؟

وفوجئت بنفسى أكذب فى تلقائية :

– مَنْ الذى أعرفه ؟

– صاحب الشقة .

– لا .. هذه أول مرة أدخل الشقة .

ونظر الضابط فى وجهى باستغراب ، فأردفت موضحاً :

– جئت على استدعاء بالتليفون .. قال لى المتكلم إنه مريض جداً وأعطانى العنوان .

– هل تستطيع أن تصف صوته ؟

– لا أذكر بالضبط .. كانت العيادة ساعتها مليئة وأصوات

الشارع تغطى على المكالمة .

ولا أعرف كيف تورطت فى هذه الأكاذيب واحدة تلو الأخرى .

كنت أريد أن أحتفظ بالسر لنفسى .

كنت أرى أن كل ما يجرى فى حياة هذا الرجل من حقى وحدى.. من شأنى .. لا شأن لأحد به .

وكنت أشعر شعوراً خفياً بأنى أمام سر لا مكان للبوليس والنيابة فيه .

وتسللت إلى غرفة المعمل من جديد مشدوداً إلى الجو العلمى الذى أحبه .

وأمام الميكروسكوب رحت أضبط العدسات مرة أخرى .. وأتأمل الشريحة الموضوعة .. وأحاول أن أتفهم طبيعتها .. كانت أشبه بنسيج جنينى .. ولكنى لم أستطع أن أتعرف على طبيعتها بالضبط فى الثوانى القليلة التى أتاحتها اللمحة المختلسة .

وبحركة خفيفة من يدى سحبت الشريحة من تحت الميكروسكوب وأسقطتها فى جيبى دون أن يلحظنى أحد .

ولم أنس أن أدس فى جيبى النوتة الحمراء الصغيرة التى وجدتها إلى جوار الميكروسكوب .

عملية سرقة واضحة .

ولكنى لم أستطع أن أقاوم الإغراء .

كانت رغبتى فى معرفة الحقيقة تغفر أمام ضميرى أى شىء ..

وارتفع صوت ضابط البوليس من غرفة النوم .

- فيه نقطة دم .

وأسرعت خارجاً .. لأراه ينحنى على السجادة وفى يده عدسة يتأمل بقعة حمراء مستديرة لا يزيد قطرها على سنتيمتر .

ولم أشأ أن أقول له إن ما يظنها بقعة دم ليست إلا بقعة « مركريكروم » من الذى يُستعمل فى مس اللوز .

وآثرت أن أتركه فى غفلته ينسج جرائم ودماء لا وجود لها .

وابتسمت وأنا ألمح زجاجة « المركريكروم » على التسريحة وإلى جوارها أدوات المس يستطيع الضابط أن يرسم بها مئات البقع الدموية والجرائم كما يشاء خياله الخصب .

وحينما كنت أركب عربتى فى طريق العودة إلى منزلى فى ذلك اليوم المضنى كنت أشعر بنشوة عجيبة كلما تذكرت أنى أحمل فى جيبى اللغز .

تلك الشريحة التى سرقتها وعليها القصاصة من النسيج المجهول التى كانت الشغل الشاغل لذلك الرجل راغب دميان .. ونوتة ملاحظاته وكنت أضغط على البنزين متعجلاً الوصول إلى معملى .

كنت متفائلاً .

وكنت أتخيل أن المسألة لن تحتاج لأكثر من نظرة متأملة من عدسة ميكروسكوب .



كنت أضع الشريحة تحت الميكروسكوب الكبير الذى استعرته من صديقى البكتريولوجى .. وأحاول جاهداً أن أفك طلاسمها .

كان ما ظهر لى فى البداية أنه نسيج جنينى ظناً خاطئاً .. فالخلايا فى تفاصيلها لا تشبه الخلايا الجنينية .. وهناك زوائد واضحة عند أطراف الخلايا مما يجعلها أشبه بنجوم مذنبة . وهى صفة فى الخلايا العصبية للمخ والحبل الشوكى لا فى الخلايا الجنينية البدائية .

ولكن شكل البروتوبلازم والنواة .. وتوزيع الصبغة المستعملة مختلف عما هو مألوف فى الخلايا العصبية .

كان الأمر محيراً ..

وما كان يحير أكثر .. هو شكل النواة فى الخلية .

كانت كبيرة متوهجة أشبه بنواة الخلية السرطانية ..

سرطان ؟!

سرطان ماذا ؟

ولكن القطاعات التى تبدو للأوعية الدموية فى النسيج لا يظهر فيها التمدد والاتساع والاحتقان المألوف فى السرطانات .. الأوعية الدموية طبيعية .. وعلامات الانقسام والتكاثر الخلوى لا وجود لها .

سرطان .. وليس سرطان .. ونسيج عصبي .. وليس بنسيج عصبى .. فماذا يكون ؟!

تذكرت النوتة الحمراء فأخرجتها من جيبى ورحت أقلب صفحاتها .

وأصابتنى خيبة أمل لا حد لها ، فلم تكن الملاحظات الخطيرة التى توقعتها إلا بيانات بمشتريات منزلية . وحساب الجزار والبقال والصيدلى .

وشعرت بالصداع .

وأشعلت لفافة تبغ .

ومضيت أدخن وأفكر فى هدوء وأطفأت النور الذى أتعب عينى من طول الحملقة فى عدسات الميكروسكوب .

كان أملاً ضعيفاً .

نعم ..

مَنْ يدرى ؟

ربما كان هو الآخر قد غادر الدنيا إلى غير عودة .. فهو الآخر يعيش على حافة كارثة .

كانت النيابة قد أخذت شهادتى للمرة الثالثة .

وكان التحقيق ما زال يسير بدون تقدم .. لم يظهر أثر للمدعو راغب دميان وكأنه كان وهماً .

قلب البوليس الأرض بحثاً عنه دون جدوى .

اختفى ..

تبخر ..

لا خيط .. ولا دليل .. ولا أثر يقود إليه .

الطبيب الشرعى قال فى كشفه على الجثة .. إنها حالة موت طبيعية نتيجة فزع فجائى توقف له القلب وشلت الأعصاب .

سكتة قلبية .. مثل السكتة التى تحدث فى الوفاة نتيجة الصاعقة ..

كيف حدث هذا الأثر الصاعق .

ما هو ذلك الخوف الذى يوقف القلب ويشل الأعصاب كما تشلها الصاعقة ..

أسئلة ..

مجرد أسئلة بلا أجوبة ..

وكنت أنا الآخر أسأل نفسى .. وأفكر .. دون نتيجة .. كل الفرق أنه كان عندى أمل فى أن يتصل بى راغب دميان .

فى كل نوبة من هذه النوبات التى تنتابه كان يبدو وكأنه يروح فى غيبوبة الموت .. وكأنه يخطو إلى هاوية لا قرار لها ..

نبضه الممتلىء كان يخفت حتى يصبح همساً . وتنفسه كان يتحول إلى لهاث ..

وأطرافه تبرد وتتثلج .

ثم ذلك الفزع الذى يظهر عليه، فتتسع حدقتاه فى جنون مثل حدقات مدمني الكوكايين وتتشنج أطرافه وتتصلب كأعواد من حديد .

ماذا كان يرى فى غيبوبته ليفزع كل هذا الفزع ..

ثم هذه اللغة الأسبانية التى كان يتكلمها فى طلاقة كما يتكلمها أصحابها بدون أن يتعلم منها حرفاً واحداً .

أهى حالة عصبية أم نفسية أم روجية ؟

أهى حالة فى متناول العلوم الطبية المعروفة ؟

كان الرد على هذا السؤال قابعاً فى أدراجي .. فى صور الأشعة العديدة التى التقطتها للرأس .. فى رسم المخ الكهربائى .. فى تحليلات الدم والسائل السحائى .. فى الفحوص الإكلينيكية المضنية التى أجريتها .

وعدت إلى صور الأشعة أحاول مرة أخرى .

وأضأت النور .. وعدت أضعها الواحدة إلى جوار الأخرى .. ورحت أتفحصها فى هدوء .

وفجأة ..

هبطت الحقيقة وكأنها إلهام ..

لا لم تكن إلهاماً .

لقد تصادف أن كان على الفانوس الخاص باستطلاع الصور صورة قديمة لجمجمة عادية لرجل سليم .

ولأول مرة أمكننى أن أقارن الصورتين .

لم تكن ظلال الجمجمة فى صورة راغب دميان ظلالاً عادية

كما تصورتها للوهلة الأولى .

كانت العظام كلها أرق قليلاً من المألوف .

ملاحظة كان من الصعب إدراكها بدون اللجوء إلى المقارنة المباشرة ، لأن الأثر الذى لحق بالعظام لحق بها جميعاً . فاحتفظت الصور بنسبها الطبيعية .

ما معنى هذا ؟

العظام أرقّ من المألوف ، فراغ الجمجمة أكبر .

هل هى حالة مرضية فى العظام ؟!

لا .. لم تكن حالة عظام بدليل عظام العنق فى الصورتين متماثلة وطبيعية .

العظم سليم .

وما حدث لعظام الجمجمة ليس مرضاً بالعظام .. وإنما نتيجة ثانوية لما حدث فى المخ .

المخ ازداد فى الحجم .

عظام الجمجمة تمددت ورقت .

الذبذبات الكهربائية الخارجية من المخ ارتفعت قوتها من ٥٠ميكروفولت إلى ٩٠ ميكروفولت .

هناك شىء ما حدث فى المخ .

وبرق فى ذهنى خاطر .

إن ما حدث فى مخ دميان .. المرجح أن يكون قد حدث مثيل له فى مخ خطيبته .. بدليل حالة الفزع التى عاشها الاثنان .

ومن حسن الطالع أن مخ الخطيبة المتوفاة أصبح فى الإمكان

تشريحه ودراسته .

وقفزت من مكانى لهذا الخاطر .

ورفعت سماعة التليفون لأطلب الطبيب الشرعى الذى أشرف على الحالة .

وأجابنى الدكتور على الطرف الآخر من الخط .

سألته فى خبث عن بعض التفاصيل فى التشخيص .

كنت فى الحقيقة أريد أن أعرف مصير الجثة .

وكان ثرثاراً بدرجة جعلتنى فى غنى عن استدراجه .

حكى لى أن الجثة ظلت فى قصر العينى ثلاثة أيام دون أن يتعرف عليها أحد .

ثم تقدم رجل عجوز قال إنها ابنته التى خرجت من أيام ولم تعد .. وبكى بمرارة وتسلم الجثة ووقع على استمارة التسلُّم بإمضاء عوض إبراهيم .. وأنه قرأ بعد ذلك نعياً فى الصحف للمتوفاة تحت اسم مارى عوض .. فيه أسماء جميع أقاربها بما فيهم الأب عوض إبراهيم .. وأن تشييع الجنازة سيكون فى الصباح والدفن بمقابر الروم الكاثوليك .. قرأ هذا فى صحف اليوم.

وفى الحقيقة لم أكن أريد أن أعرف أكثر من هذا ..

إنها دفنت اليوم بمقابر الروم الكاثوليك .

ربما من ساعات .

ولم يكن أمامى وقت أضيعه .

كان لا بد من الوصول إلى الجثة والحصول على المخ بسرعة

قبل أن يتحلل .

وارتديت ثيابى .. وأخذت عربتى .. وأسرعت إلى المقابر .. كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل ، والبرد قارصاً والرياح شديدة ، والشوارع خالية تماماً .

وشعرت بالاطمئنان .

فى مثل هذا الخفاء والظلمة والسكون يستطيع الواحد أن يفعل أى شىء .

وبلغت بوابة المقابر .

وكان الحارس ينام فى غرفة إلى جوار الباب .

ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة المقبرة والوصول إلى الجثة بدون معونة الحارس .

وظللت أطرق باب الغرفة عدة مرات قبل أن أسمع خطوة الحارس وهو يتعثر وأسمع تثاؤبه .. ثم أراه يفتح الباب وينظر إلىَّ وقد فغر فاه فى دهشة .

لم يكن غريباً علىّ .

وسرعان ما تصافحنا فى ودّ ، فقد كان الرجل مريضاً قديماً من مرضاى أعالجه من سنوات من حالة صرع مزمنة .

وجرى كل شىء بعد ذلك فى هدوء .

صحبنى الرجل إلى المقبرة ومعه أدواته .

وصدق الرجل أنى أفعل هذا بتفويض من النيابة ، وأن فى الأمر سراً خطيراً لا يجب أن يعلمٌ به أحد .

ومضى وقت وهو يرفع البلاطة الرخامية .

وكان صوت معوله وهو يهوى فى الصمت والخراب كأنه يدق على أعصابى .

وأخيراً كان الصندوق يتمدد أمامى فى ضوء النجوم .

هناك فى قلب ذلك الصندوق كانت الحقيقة تنام .. لا يفصلنى عنها سوى غطاء خشبى .

الحقيقة ...!!

وعلى ضوء بطارية صغيرة رفعت الغطاء ليفاجئنى منظر مروع .

كانت الجثة ممددة فى الصندوق بلا رأس .

الرأس مقطوعة من جذورها .

وأذهلتنى المفاجأة .. وألجمت لسانى .

ونظرت بارتياب إلى الحارس .. ولكن الحارس كان يقف مثلى وقد اتسعت عيناه من الصدمة وراح يحملق فى الصندوق فى بلاهة .

كان واضحاً أنه خالى الذهن تماماً مما حدث ، وأنه أكثر منى جهلاً بالفاعل .

وسقط قلبى فى ضلوعى ، وكأن رأسى أنا هو الذى قُطع .

وتذكرت راغب دميان .

كنت أرى يديه على الجثة .. وآثار بصماته على الصندوق ، وآثار أقدامه على الأرض المتربة .

لم يكن هناك شك فى أنه صاحب المصلحة الوحيد فى هذا العمل .

كنا كـلانا نجرى خلف شيء واحـد مثل كلبى صـيد منطلقـين خلف سر رهيب .

وكززت على أسناني .

لقد سبقني ..

سبقني ..

كنت أشعر بخيبة أمل لا حد لها .

وأعدت الغطاء إلى مكانه .

وتركت الحارس يسوى الأرض ويضع البلاطة مكانها .

وعدت أدراجي وأنا أشعر بأن خطواتي ثقيلة وساقي وارمتان.

كان يجثم عليَّ يأس لا حد له .

كنت أقول لنفسي :

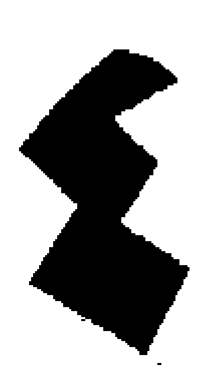
إذا كان هناك معنى أكيد لهذا كله . فهو أن راغب دميان حي .

وأنه يعيش في مكان ما .

وأنه لا بد سيلجأ إليّ .

لابد سيلجأ إليّ .

هل كنت أطمئن نفسي ؟



أصبح التفكير فى راغب دميان جزءاً لا يتجزأ من حياتى ، فأنا أصحو وأنام على وجهه الهضيم الشاحب وعينيه الزائغتين .

وأنا أسمع صوته . وأهذى به فى أحلامى .

وأنا أتخيله طول الوقت فى معمله وقد انفرد بالرأس الذى نزعه من الجثة وراح يفحصه .

ماذا تراه قد وجد من أسرار فى تلك الحقيبة من الجلد والعظم التى اسمها الدماغ .

وأى بحوث غريبة يجريها ؟

هذه الخلايا الحية التى اسمها المخ .. كيف ترى وتسمع وتحس وتشم وتفهم .

كيف تشعر بالألم ؟

وكيف تشعر باللذة ؟

وكيف يخلق لنا المخ هذا الضـوء الذى اسمه الوعى والإدراك ؟ هل المخ هو العقل ، أم أنه مـجرد وسيط يستـخدمه العقل ليـتعقل الأشياء ؟ إن ما قـاله لنا الطب عن المخ والأعصاب قليل ، وأقل من القليل . فالأعصـاب أدوات استشعار تنقل المؤثرات الخـارجية إلى مراكز فى المخ ، كما تنقل أسلاك التليفون الكلام إلى الأذن .. وفى هذه المراكز كـما فى الأذن يتم تصـور هذه المؤثرات بالشكل الذى نراها به فى الواقع .

إننا نشـعر بالمؤثـرات العصـبيـة على هيـئة حـرارة وبرودة ، وضوء ورائحة ، وألم ولذة .

ولكن كيف ؟

هذه التـرجمـة التى يترجم بهـا مـخنا كل المؤثرات التى تصل إليه.. هل هى ترجمة صحيحة ؟

هل الماء لا طعم له ؟

وهل الليل أسود .. والنهار أبيض ؟

أم أنها إحدى الصور الممكنة بين ممكنات لا عداد لها ؟

هل يمكن أن يكون لهذا العالم شكل آخر ؟

وهل يمكن أن نراه على صورة أخرى أكمل وأشمل وأصدق ؟

إن السر فى المخ .

إننا نبدأ وننتـهى إلى المخ دائماً ، فهو المترجم الإلـكترونى لهذه الدنيا . وهو الذى يصـنع لها صورتهـا وشفرتهـا . فإذا أردنا أن

نرى للكون صورة أعمق وأصدق من التى نراها .. فلا سبيل سوى أن نفك هذا الجهاز الإلكترونى الذى اسمه المخ ، ونعيد تركيبه ليكون أقدر على هذه الرؤية الجديدة التى نطلبها .

إنه المخ دائماً .

حقيبة الأسرار ومفتاح جميع هذه الرؤى السحرية .

المخ أولاً إذا أردنا أن نعرف حقيقة أى شىء .

وهو يعلم هذا جيداً ذلك الرجل .. راغب دميان .. وربما كان فى هذه اللحظة يستخرج المخ من الجثة ويضعه على المشرحة ، ويقطعه جزءاً جزءاً ليفحصه بذلك الميكروسكوب الذى يكبر عشرة آلاف مرة .

وهو قد توصل إلى شىء .. شىء لا أعلمه .. ولكنه خطير .. يستطيع أن يوسع نطاق المعرفة والرؤية والإحساس .

وربما أوصلته هذه البحوث إلى رؤى جديدة مفزعة .

نعم .. كان السر هناك تحت خبطات مشرطه فى تلك اللحظة وأنا هنا ألهث أمام أبواب مغلقة .

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة .. وأنا ما زلت مسهداً .. أستجدى النوم بلا فائدة .

وفكرت أن أجرب الطريقة المألوفة فى جلب النوم .. بالقراءات السخيفة .

وبدأت أقلب أكوام الجرائد القديمة إلى جوار الفراش .. أقرأ

الإعلانات ، والوفيات ، والمقالات المملة ، والحوادث التى قرأتها قبل ذلك مرات ومرات .

وبدأت الحروف تتراقص أمام عينى .. وبدأت أنعس .

وكنت أوشك أن أنام حينما التقطت عيناى عنواناً فى صفحة الحوادث فى جريدة قديمة عن سرقة عشر إبر راديوم ثمنها أكثر من عشرين ألف جنيه من قسم أبحاث الراديوم بالقصر العينى .. وقد أبلغ عن السرقة مدير القسم المهندس راغب دميان .

وطار النوم من عينى فجأة .. وقفزت من فراشى ..

ورحت أقرأ الخبر مرة ومرات وأنا أفرك عينى وأعود فأقرأ من جديد الاسم بالبنط الأسود .. راغب دميان ..

وقرأت تاريخ صدور الجريدة ..

كانت صادرة منذ ثلاث سنوات ..

ولا أدرى لماذا احتفظت بها كل هذا الوقت ربما بسبب هذه الإحصائية المنشورة عن الأمراض العصبية فى مصر والموجودة بنفس العدد .

مَنْ كان يظن أنى يمكن أن أضع يدى على سر خطير بهذه البساطة .

إنه هنا .

راغب دميان بعينه .

وهذه السرقة التى أبلغ عنها هى من صنع يديه .

فلا أحد يسرق راديوم إلا لص عالم ، وبحاثة يعرف فوائده وينوى استخدامه والاستفادة به .

إنَّ اللص العادى لا يمكن أن يمد يده إلى راديوم .

وأين يبيعه إذا سرقه ؟ وكيف ..؟ وماذا يعنى الراديوم بالنسبة له ؟ لا شىء .

إن هذه السرقة وثيقة الصلة بالبحوث التى كان يقوم بها راغب دميان منذ ذلك الحين .

وربما كان هذا التاريخ هو بداية اشتغاله بهذه البحوث . وكتبت التاريخ فى ورقة .

وقطعت قصاصة الخبر من الصحيفة واحتفظت بها .

لقد تقدمت خطوة .

إن راغب دميان لابد أنه يحتفظ بهذه الإبر الثمينة من الراديوم فى مكان آخر غير بيته وغير معمله الذى اقتحمه البوليس .

ومعنى هذا أن معمله الحقيقى وأدواته فى مكان سرى مختف عن الأعين .. وفكرت ..

إن هذه الإبر الثمينة من الراديوم المشع سوف تفضحه .

وكتبت ملحوظة فى نوتة بشراء عداد جيجر .

عن طريق هذا العداد الذى يكشف عن أقل إشعاع سوف أستطيع معرفة مكان المعمل السرى ومخبأ إبر الراديوم .

●●●

كان أول شىء فعلته حينما تيقظت فى الصباح .. هو شراء عداد جيجر .

ورسمت خطة محكمة لتقسيم القاهرة إلى عشر مناطق .. أذرع كل منطقة بالعربة فى يوم .. أتجول فى كل شبر فيها .. وأتحسس طريقى .

وسوف يتولى العداد كشف المنطقة التى فيها الراديوم .. ثم يدلنى على البيت .. والغرفة .. والخزانة .

لن يكلفنى الأمر أكثر من الصبر والمثابرة .

وبدأت اليوم الأول بحماس .

وظللت أتجول فى ضاحية حدائق القبة .

فكرت أنه ربما اختار مخبأ قريباً من بيته .

ولكن بحثى لم يسفر عن شىء .

كانت عيناى على مؤشر العداد طول الوقت ولكنه كان ينام نوماً ثقيلاً فى مكانه .

وفى اليوم التالى كنت أذرع شوارع المعادى .

وفى اليوم الثالث كنت فى الدقى .

وفى اليوم الرابع كنت فى الجيزة .

وفى اليوم الخامس كنت فى مصر الجديدة .

منطقة بعد منطقة رحت أذرعها فى صبر وأناة ، بدون جدوى .

فكرت أنه ربما كان يضع إبر الراديوم فى خزانة من الرصاص

مزدوجة الجدران .

وبمثل هذا الاحتياط يستطيع أن يمنع الإشعاع من التسرب بقدر يسمح باكتشافه .

كان مثل هذا الاحتياط بديهياً من مهندس أشعة يعلم أنه سارق.

وكان معنى هذا أنى ألهث وراء شىء لا وجود له .

وصرفت النظر عن هذه المطاردة .

وخيم علىَّ اليأس من جديد .

ولكن لا أدرى لماذا برقت فى ذهنى من جديد حكاية النوتة الحمراء .

لماذا فكرت فجأة أنه من غير المعقول أن تكون كل وظيفة هذه النوتة هى إدراج حسابات الجزار والبقال والصيدلى ؟

ولماذا توضع مثل هذه النوتة بجوار الميكروسكوب ؟

وبسرعة أخرجتها من جيبى ورحت أتفحصها من جديد .

وما كدت أقلب الصفحات الأولى حتى فوجئت بصفحات فى الوسط مكتوبة بالرصاص ، فيها معادلات كيميائية .

وفى صفحة أخرى ملاحظات متناثرة على شكل خواطر .

لوحظ أن العصب البصرى يحتوى على أكثر من مليون خط عصبى .

وأن الإشارات العصبية تنتقل فى الأعصاب الطويلة مثل

أعصاب الساقين عن طريق محطات تقوية كهربائية كيمائية ، وأن الليفة العصبية ليست في الواقع إلا سلسلة من محطات التقوية تماماً كما في الكابلات التي تنقل الإشارات التليفونية عبر البحر .

– كيف تبقى البطاريات في الخلايا العصبية مشحونة على الدوام وفي حالة صالحة للإرسال والاستقبال طول العمر .. هذا هو السؤال .

– في الوقت الذي تنقبض عضلات القلب ٧٠ مرة في الدقيقة.. ولا تكاد تنقبض عضلات المحار والأصداف إلا مرة كل عدة ساعات لإغلاق المحارة وفتحها .. لوحظ أن عضلات أجنحة الحشرات تنقبض حوالي ٥٠٠ مرة في الثانية ، المادة التي تتكون منها عضلات هذه الحشرات هي الأكتوميسين (هي مادة بروتينية) ..

كيف يمكن أن تتم العمليات الكيميائية في هذه العضلات بمثل هذه السرعة والكفاءة ..؟!

– الجسم الصنوبري في المخ .

– الأثر الإشعاعي على الكروموسومات .

وتحت كلمة الجسم الصنوبري ثلاثة خطوط .

حاولت أن أفهم المعادلات الكيميائية ولكن معلوماتي في الكيمياء لم تسعفني ..

ولماذا الاهتمام بالجسم الصنوبري بالذات ؟!

أنا أعلم من دراستى للتشـريح أن الجسم الصنوبرى هو زائدة فى المخ بلا وظيفة معروفة .. وكان مـعتقداً فى الماضى أنها مركز الاتصالات الروحية .. وهو اعتقاد خرافى رفضة العلماء من زمن .

مـا الذى يجـعله يفكر فى الجـسم الصنوبرى ، ويضـع تحـتـه ثلاثة خطوط ..

واهتمامه بالكروموسومـات (وهى ناقلات الصفات الوراثية) وبتأثير الإشعاع عليها .. ومادة الأكتوميسين !

هل هذه المعادلات الكيميائية هى محاولات للوصول إلى تركيب مادة الأكتوميسين ..؟!

كانت الملاحظات كلها مكتوبة على شكل خواطر عابرة .. ولكنها فتـحت أمامى عـالماً من الغوامض الـتى يعيش فـيها ذلك الـباحث الغريب ..

ما الذى يجرى وراءه دميان ؟

٥

إن ما يجرى وراءه راغب دميان هو اكتشاف سر الحياة ..

إن الكلمات القليلة المكتوبة فى النوتة تشـير إلى هذا .. فبحوثه تدور حـول سر التـفـاعلات الكهـربائيـة الكيمـيـائية فى الخليـة العصبية.

كيف تتولد التنبيهات الكهربائيـة فى الخلية العصبية ؟.. وكيف تنتقل هذه التنبيهات إلى العضلات .. وكيف تنقبض هذه العضلات فى حشرة بدائية خمسمائة مرة فى الثانية ؟

من أين تنبع هذه القوة المجنونة التى تحرك جـناح حشرة مثل مروحة طائرة ؟ وما سر هذه المادة السحـرية « أكتوميسين » التى تتألف منهـا العضلة الحية ؟ « والكرومـوسومات » ؟ لغز الحـياة المطلسـم .. تلك القضبان الدقيقة فى أنوية الخلايا ، التى لا تُرى إلا بأقـوى الميكروسكوبـات .. تلك القـضـبـان التى تحـوى على كل الصفات الوراثية للإنسـان ـ وما هو أكثر ـ إنها تكاد تكون أرشيفاً

لتاريخ الحياة كله مسجلاً على المادة الحية . متنقلاً معها من جيل إلى جيل .

إنه يحاول أن يكشف سرها بالتأثير عليها بالإشعاعات .

وأخيراً تلك الزائدة الغامضة فى المخ البشرى (الجسم الصنوبرى) التى تتدلى مثل ترمسة صغيرة فى وسط المخ بلا وظيفة وبلا دور معروف .

هل يمكن أن يكون قد وصل إلى سرها ؟! ماذا اكتشف ذلك الرجل الهضيم الشاحب ؟

إنه يسرق .. ويقتل .

نعم .. ربما كانت هذه الوفاة التى بدت وفاة طبيعية هى جريمة قتل دبرها بوسائله ليحصل على مخ الضحية .

ربما كانت تجربة رهيبة من تجاربه .

وربما كان فى طريقه الآن إلى جريمة أخرى .

كنت أقود عربتى بسرعة فى طريق مصر ـ إسكندرية الزراعى ذاهباً إلى طنطا فى مشوار عائلى .

وكنت غارقاً فى تساؤلات لا آخر لها وقد استقرت قدمى على دواسة البنزين على آخر سرعة حينما ظهرت أمامى فجأة عربة نقل كبيرة .. وضغطت بآخر قواى على « الفرملة » وانحرفت فى الاتجاه الآخر لأنزل أنا والعربة فى حقل محروث حديثاً .

وكنت حسن الحظ لأن العربة غاصت فى هدوء وأمان فى التربة المحروثة .. وكتبت لى النجاة من موت أكيد .

وتصبب العرق على وجهى وشعرت بأصابعى باردة ثلجية مبتلة ورحت أمسح وجهى بأنامل مرتجفة .

وكان قد تجمع حول العربة بعض الفلاحين الذين راحوا يدفعون العربة التى غرست فى التربة الرملية .

وخطوة .. خطوة .. بدأت العجلات المغروسة تتحرك .. ومددت يدى لأدير « المارش » .

وحانت منى التفاتة إلى عداد جيجر الذى وضعته على عارضة العربة واتسعت عيناى من المفاجأة .

كان مؤشر العداد قد اندفع على الميناء مشيراً إلى وجود إشعاعات راديوم عن قرب .

معنى ذلك أن مخبأ دميان عن قرب .

إشعاعات راديوم عن قرب !

معنى ذلك أنى على بعد خطوات من السر .

ربما دورة أو دورتين بالعربة فى المنطقة .. وأستطيع أن أحدد بالضبط مصدر تلك الإشعاعات .

ونظرت حولى .

كان الطريق الزراعى خالياً ..

لم تكن هناك آثار لمساكن سوى « فيلا » صغيرة على بعد خمسمائة متر من المكان ..

لم يكن هناك مجال لاحتمالات عديدة .

وإنما هو احتمال واحد فى الغالب ، هو أن هذه « الفيلا » فى

هذا الطريق المقطوع هى المخبأ السرى .

وكان معنى هـذه الإشعاعات القوية أن الراديـوم موضوع فى مكان مكشوف وليس محفوظاً فى خزانته الرصاصية التى تحجب الإشعاع .. وربما كان موضوعاً فى تجربة بالفعل .

وتوترت حـواسى كلهـا وأنا أتطلع إلى النوافـذ ذات السـتـائر المسدلـة وأوقـفت العربة على جـانب الطريق على بعد كـاف حتى لا تثير الريبة .

وتسللت إلى « الفيلا » لأصـعد السلالم القليلة فى المدخل .. ثم أقف أمام الباب أتلفت حولى فى حيرة .

هل أدق الجرس ؟

لا ..

إن أى إشعـار بطارق غريب سـوف يعطى الرجل وقتاً كافـياً ليخفى معالم كل شىء .

لا بد من وسيلة للمفاجأة ..

لا بد من الدخول من طريق آخر غير الباب .

لو أنى درت بالعربة حول « الفيـلا » ووقفت بها تحت البلكونة الخلفيـة لأمكننى أن أصعـد فوق العـربة وأقفز منهـا إلى البلكونة كالقطة بأقل جهد يذكر .

وفى لحظة كنت أدور بالـعربة ، وأقـف بها فــى المكان المناسب وأصعد عليها ثم أقـفز لأصبح فى البلكونة لا تفصلنى عن الداخل إلا ستائر حريرية هفافة .

وأزحت الستائر فى حذر وأدخلت عينى متلفتاً لأكتشف أن البلكونة لغرفة نوم ، وأن غرفة النوم خالية .

كانت هناك صالة واسعة وممر وغرفة مضاءة فى آخر الممر ، وباب الغرفة مفتوح ، ويبدو منه جهاز « أتوكلاف » كبير .

إنه المعمل .

ولا بد أنه عاكف الآن على العمل .

هل أدخل .. أم أختبىء حتى يخرج لأفتش بحرية فى كل شىء ؟ وآثرت الاختفاء .

وعدت إلى غرفة النوم لأتمدد تحت السرير وقد أصخت بكل أذنى إلى كل حركة .

ومرت ساعة كئيبة شعرت فيها بأنى أتثلج .

ولم أسمع خلال هذه الساعة الطويلة حركة واحدة تدل على وجود حياة إلى جوارى .

وفكرت ..

ربما كان فى الخارج وقد أشعل النور قبل خروجه ليوهم أى لص من لصوص الطريق أنه موجود .

وخرجت من مخبىء بهذا الأمل الضعيف وتسللت إلى الصالة ثم إلى الباب المفتوح .. لأطل فى خوف .. واكتشفت أن المعمل كان خالياً طول الوقت .

وبعد دقيقة أخرى من التجول الحذر تيقنت أن البيت خال بالفعل ، وأن صاحبه فى الخارج .

ولم أشأ أن أضيع لحظة .

كان المعمل هو هدفى .

وفى مكان واضح على يمين الباب شاهدت المخ الذى أبحث عنه فى حوض فورمالين ..

وبنظرة واحدة اكتشفت أن المخ مقطوع قطعاً طولياً ، وأن الجسم الصنوبرى منزوع منه .

وعلى مائدة أخرى شاهدت مخاً آخر ، ثم ثالثاً ورابعاً فى أحواض فورمالين .. وقد قطعت كلها قطوعاً طولية ونزعت الأجسام الصنوبرية منها .

وتجمد الدم فى عروقى .

هل أنا أمام سفاح مجنون يقتل ضحاياه بالجملة .. ويتخذ من الأجسام البشرية الحية حقلاً لتجاربه .

أم أن ما اكتشفه ذلك الرجل من أسرار جعله يستهين بكل قيم إنسانية فى سبيل أن يضع يده أخيراً على لغز الحياة ..

ونظرت أمامى ..

كان هناك مولد للكهرباء الاستاتيكية ، ومرشحات وأنابيب تقطير متعددة وأصباغ وأحماض وقلويات ومحاليل عيارية وأحواض صغيرة لزرع الأنسجة الحية وميكروسكوب .

وفى الركن الخزينة الرصاصية المزدوجة الجدران التى توضع بها إبر الراديوم .

وكانت الخزينة مفتوحة وخالية .

وفى الركن الآخر كرسى عجيب ، يشبه كرسى طبيب الأسنان، مثبتة على جانبيه روافع عديدة .. وعند رأس الكرسى ثلاثة أنابيب زجاجية مفرغة تشبه أنابيب أشعة المهبط التى توجد فى أجهزة أشعة إكس ..

والجالس فى هذا الكرسى يمكن أن يكون هدفاً لأشعة مركزة تأتيه عن يمينه وعن يساره ومن خلفه .. ثلاث حزم من الأشعة تنعكس من ثلاثة عواكس لتتركز فى نقطة واحدة فى رأس الجالس على الكرسى .. يمكن أن يحددها المشرف على العملية مسبقاً عن طريق الروافع المتعددة المحيطة بالكرسى .. وهى روافع مزودة ببراجل دقيقة لقياس قطر الرأس ومحيطه .

جهاز غريب .. لم يسبق لى أن رأيت مثله .

وبعض أجزاء الجهاز مصنوعة محلياً .

إنه غالباً جهاز مخترع .

ولكن أى نوع من الأشعة يطلقه هذا الجهاز الجهنمى ..

هل هى أشعة راديوم ؟

إن إبر الراديوم لا مكان لها فى الجهاز ..

والأنابيب الزجاجية المفرغة تختلف فى مقايسها عن أنابيب أشعة إكس المعروفة .

إنه يطلق إشعاعاً خاصاً ذا ذبذبة عالية التردد .. ربما إشعاع

« جاما » أو إشعاع « بيتا » أو أى لون من ألوان الإشعاعات القصيرة الموجة ، وربما كان يستخدم لوناً من النظائر المشعة .

وكيف يتأتى له الحصول على النظائر المشعة بدون معونة مفاعل ذرى ؟

ولاحظت وجود « بارافان » وراءه شماعة . ربما كانت وظيفته أن يخلع الزائر ثيابه من خلفه ويعلقها على الشماعة استعداداً لفحوص طبية وكيميائية معينة .

شيء مريب .

ولاحظت أن « البارافان » يؤدى أيضاً إلى باب في الخلف ، والباب يفتح على غرفة مربعة .. بها جهاز آخر غريب يشبه مفاعل ذرى صغير ، ولكنه ليس مفاعلاً ذرياً بالمعنى العلمى المفهوم .

وفى مركز الجهاز بومبة راديوم .. بها إبر الراديوم المفقودة .. وكان من الواضح أن ذلك الرجل توصل إلى عدة مراحل يحطم فيها المادة إلى إشعاعات .

وأنه يستخدم هذه الإشعاعات فى تجاربه على المخ الحى .. ولكن ما الداعى إلى مولد الكهرباء الاستاتيكية .. وما دوره فى العملية .. وأجهزة التقطير والأصباغ والمحاليل العيارية ومواقد بنزن العديدة !؟

لا بد أن هناك عملية استخلاص كيميائية أخرى لها أهميتها .. ووضعت عينى على الميكروسكوب .

وفوجئت برؤية الميكروسكوب يسبح فيه عدد هائل من الحيوانات المنوية .

لم تكن حيوانات منوية آدمية .. وإنما حيوانات منوية مستخلصة من مثانات ضفادع فى الغالب .

وتأكد استنتاجي حينما رأيت بويضات ضفادع متعددة فى نفس المجال الميكروسكوبى .

كان معنى هذا أنه يحاول مشاهدة عملية تلقيح البويضة على الطبيعة وعملية الانقسام والتخليق الجنينى ، ودور النواة والكروموسومات فى العملية .

وكان مؤشر الميكروسكوب يشير بالفعل إلى نواة البويضة وإلى كروموسومات .. وفهمت من وجود سحّاحة بها سائل أزرق إلى جوار الميكروسكوب أنه يحاول أن يجرب دور المؤثرات الكيميائية المختلفة على الكروموسومات .

إنه معمل باحث متعمق فى الطبيعة الحية .

وكانت على المائدة كراسة مذكرات ..

ومددت يدى لأفتح الكراسة .. ولكن يدى تجمدت مكانها .. فقد سمعت المفتاح يدور فى قفل الباب وأرجل مسرعة تدخل ..

وتلفت فى ارتباك أبحث عن مكان اختبىء فيه ..

ولم أجد أمامى إلا « البارافان » .

وأسرعت أختبىء خلفه وكتمت أنفاسى .. فى الوقت الذى دخل فيه دميان ومعه رجل آخر كبير الرأس .

وكان دميان يبدو أشد نحولاً وأشد شحوباً مما كان ..

وسمعته يقول لزائره وهو يشير إلى الكرسى الذى يشبه كرسى طبيب الأسنان .

- هذا هو الجهاز الذى سيشفيك من الصلع .

- ربنا يجعل فى يدك الشفا .

- بإذن الله الاعتماد على الله .

وأخذه من يده مردفاً :

- أخلع الطاقية من على رأسك وتعال اقعد هناك وأشار إلى الكرسى .

وخلع الرجل الطاقية ولاحظت أن رأسه أصلع تماماً .

وعرفت الخدعة .

إن دميان استدرج الرجل الأصلع بزعم أنه سوف يعالجه من الصلع .. وبهذه الطريقة سوف يضعه على الكرسى ويسلط الأشعة الجهنمية على مخه .. ويكيفه كما يشاء فى الوضع الذى يختاره .. ليكون موضوعاً لتجربته وربما لجريمته فيما بعد حينما يصبح المرحوم مخاً فى أحد أحواض الفورمالين المتراصة على المائدة .

كنت على وشك أن أشهد بعينى جريمة قتل بشعة ..

وفكرت بسرعة .. على حين جلس الرجل الأصلع على الكرسى، وأخذ دميان يقيس رأسه بالبراجل العديدة المثبتة فى الروافع .. ويدوِّن المقاييس فى نوتة .. ثم يعدل من وضع أنابيب الأشعة

ويغير الزوايا العاكسة ليضبطها على المسافات المطلوبة .

ثم فتح أحد الأدراج وأخرج حقنة معقمة .. ملأها بسائل أزرق ، يشبه السائل الذى فى السحاحة ، وحقنها فى وريد الرجل .. ونظر إلى ساعته قائلا :

- بعد عشر دقائق سوف أبدأ العلاج .

وسألت نفسى وأنا أفكر بسرعة : ولماذا عشر دقائق بالذات ؟

وأسعفتنى ذاكرتى الطبية .

إن هذه هى الدقائق المطلوبة لتصل المادة المحقونة فى الدم إلى الجسم الصنوبرى فى المخ ويبدأ فعلها .. وبعد هذا يبدأ العلاج ..

ولن يكون العلاج إلا تسليط هذه الأشعة الجهنمية من زوايا ثلاث على الجسم الصنوبرى .

بعد دقائق تبدأ جريمة رهيبة .. وأنا واقف اتفرج .

لابد من عمل ..

لابد من عمل ..

٦

انقضت الدقائق العشر ..

وبدأ دميان يوصل التيار الكهربائى ويدير أزرار الجهاز .

وأضاءت أنابيب أشعة المهبط الثلاث بوهج خافت .. وارتفع أزيز الآلة الجهنمية .

وتلفت حولى فى ذعر .

واكتشفت أن سكينة التيار الكهربائى ورائى .

كانت أشبه بطوق نجاة يلقى إلىَّ فى آخر لحظة .

وبسرعة فصلت السكينة فانطفأت الأنوار وغرقت الغرفة فى ظلام دامس وسمعت دميان يقول فى ضجر :

انقطع التيار مرة أخرى .

ثم يردف فى غيظ وقد أعد نفسه للانتظار :

- أمرنا لله .

ولكن الانتظار طال ولم يعد التيار إلى حاله .. وأنا أتنفس الصعداء فى مخبئ .

ومرت ساعة ترقب طويلة مملة .

ورأيت دميان يضيء بطارية صغيرة ويقول لزائره :

– يبدو أن التيار سيظل مقطوعاً طول الليل ..

يحسن بنا أن نؤجل العلاج للغد .

– كنت أريد أن انتهى من العلاج وأستريح .

– ليس أمامنا حل آخر .

ورأيت الاثنين يخرجان .. وسمعت الباب يفتح .. وخطوات الاثنين تنزل السلم .. وتغيب فى الطريق .

وفكرت بسرعة .

إن وجودى وراء البارافان يعطينى الفرصة لأراقب كل ما يجرى فى الغرفة ويعطينى الفرصة فى نفس الوقت لأن أطفىء النور وأهرب فى الظلام من الباب الخلفى إذا دعا الأمر .

كان مكاناً مناسباً يجعلنى وسط الأحداث باستمرار .

ولم يكن فى نيتى أن أواجه راغب دميان .

كنت أريد أن أتركه يعمل بحريته تحت وهم أنه وحيد فى معمله .. لأعرف منه كل شىء .

ولهذا قررت البقاء فى مكانى .

ومرت دقائق ظننتها ساعات .

ثم سمعت المفتاح يدور فى الباب وخطوات دميان داخلة ..

كان وحده هذه المرة .. وشعاع البطارية الصغير يلمع فى يده .

وبحركة خفيفة أعدت السكينة إلى مكانها .. فتلألأت الأنوار فى المعمل ، وسمعت دميان يمصمص بشفتيه فى ندم :

– لو أننا انتظرنا قليلاً ..

ورأيته يفرك يديه وينظر إلى المصباح المضىء فى عتاب .. ثم يفتح الكراسة ويطل فى الميكروسكوب ثم يلقى بالشريحة التى عليها الحيوانات المنوية فى البلاعة .. ويفتح صندوقاً يستخرج منه ضفدعة حية يشقها بمشرطه بسرعة .. ليفرغ ما فيها من حيوانات منوية على شريحة جديدة يضعها على الميكروسكوب ثم يمضى يلاحظ .. ويدوِّن ملاحظاته بسرعة .

ويمد يده إلى السحاحة ويفتح صنبورها، فتنزل قطرات قليلة زرقاء من القطارة على شريحة الميكروسكوب .. ويعود إلى الفحص وتدوين الملاحظات .

وبعد ساعة أخرى من العمل المتواصل رأيته يقف وينظر حوله متعباً ويمسك برأسه ويفركها ويفرك عينيه كأنما ليحاول أن يطرد نعاساً .. ثم رأيته يخرج حقنة من الغلاية يملؤها بالسائل الأزرق ثم يعرى ذراعه ويضغط فوق مكان الوريد بقطعة من الجلد ثم يغرس الإبرة بمهارة وسرعة ويحقن نفسه .

وراح ينظر إلى ساعته ويعد مرور الثوانى والدقائق .

وبعد عشر دقائق كان يتجه نحو الآلة الجهنمية ثم يجلس على كرسيها ويوجه أنابيب الإشعاع الثلاثة ، واحدة إلى جبهته ، والثانية إلى جانب من رأسه ، والثالث إلى الجانب الآخر .. ثم

يضغط على الأزرار فتضىء الأنابيب الثلاثة بوهج خافت ، ويدوى ذلك الأزيز الرهيب .

وتجمد الدم فى عروقى وأنا أشاهد ما يجرى أمامى .

إنه يجرى تجربة الموت على نفسه ، إنه نفس السائل الذى حقن منه فى وريد الرجل .. ربما نصف الكمية ولكنه نفس السائل .

وها هو ذا يجلس مكانه ويسلط الأشعة الرهيبة على مخه .

هل بإمكانه أن يتحكم فى مقدار جرعة الأشعة عن طريق هذه الأزرار إلى جواره .

أظن أنه بإمكانه أن يفعل هذا، فهناك أكثر من عداد للأمبير والفولت على واجهة الجهاز .

ورأيته يدخل فى نوبة تشنج، فتتصلب عضلاته كأعواد من حديد وتظهر فى عينيه تلك النظرة الهائلة من الذعر وكأنه يرى أبواب الجحيم تفتح أمامه .

ثم يدخل فى غيبوبة كاملة يسترخى فيها كأنه فى نوم عميق .

ثم سمعته يتكلم .

كان يتكلم بنفس النبرات الهادئة الواضحة كما كان يتكلم حينما اعترته النوبة فى عيادتى .

وكان يتكلم باللغة الأسبانية السليمة كما حدث تماماً فى المرة الأولى ..

واستطعت أن أترجم ذلك الكلام الذى يوجهه إلى دون سباستيان كاميللو .

- يا صديقى إن ما حدث فى ذلك اليوم ما زال محفوراً فى رأسى .. لم تكن مفاجأة لى أن ينفجر اللغم فى الوقت والساعة التى انفجر فيها .. لقد كنت على علم بكل شىء .. وكنت أرى اللغم أمامى .. كنت أراه بعينى هاتين .

وتغيرت نبرته تماماً وكأنما قد لبسه شخص آخر .. شخص أجنبى النبرة، لاهث الأنفاس ، هو دون سباستيان .

- لا أصدق .. يا إلهى .. هل يمكن أن يكون هذا معقولاً ..

- هناك حالة نفسية لا يعرفها إلا من عاش فى الحرب مدة طويلة .. حالة تستبد بالجندى، فإذا به يندفع ليلقى بنفسه إلى الهلاك وكأنما يحدوه دافع باطنى إلى الخلاص بنفسه من كل هذا الجنون .. فإذا به يدخل فى خط النار ويمشى على الألغام ويسعى إلى الموت مفتوح الذراعين .

- دون ميجولو فارجا أنت دخلت بنا فى حقل ألغام .. وأنت تعلم أنك داخل فى حقل ألغام ؟

- نعم كنت أعلم .

- دون ميجولو فارجا أنت مقبوض عليك .

وسمعت ضحكة مجلجلة من دون ميجولو فارجا .

- تقبض على ماذا ؟؟!! .. ألا ترى أنى مقبوض علىَّ بالفعل فى جاكتة جبس وبنطلون جبس منذ شهور وأنى لا أحرك ذراعاً ولا ساقاً !؟ تقبض على الجبس لتضعه مرة ثانية فى الجبس ؟

وعادت الضحكة المجلجلة تدوى مرعبة فى الغرفة :

– وكيف ستنفذ أمر القبض يا جاويش سباستيان كاميللو ..
أنسيت أنك تنام إلى جوارى مقطوع الذراعين فى الجبس مثلى .

وسمعت دون سباستيان يزأر :

– سوف أقبض عليك بأمر القانون .

وعاد دون فارجا يضحك .

– القانون انتهى العمل به من زمان أيها الجاويش .. أنسيت أننا هزمنا فى الحرب . وأن هناك قانوناً آخر الآن فى الحكم .

وعاد يضحك ضحكته الباردة المرعبة :

– انظر حولك .. إننا الآن أسرى ولسنا أبطالاً .. وهذه الأعلام المرفوعة ليست أعلامنا .. لقد انتهينا مع الدنيا التى انتهت .

وسمعت زئير دون سباستيان :

– أنت مجنون .. مجنون .. مجنون ..

– ثم تحول الزئير إلى عويل وأنين وبكاء مختنق ونبرات متهدجة ..

– وما العمل .. وما العمل ؟

– سوف نموت .. سوف نموت .

وسمعت صراخ دون سباستيان :

– أنا لا أريد أن أموت .. أنا أريد أن أعيش .. أنا أريد أن أعيش..

واختفى الصراخ ليتحول إلى نشيج مكتوم .

وكنت أرى دميان يهتز بالنشيج الذى يخرج من بين جنبيه .

كان من الواضح أنه مجرد أداة لهذه الأصوات الغريبة التى

تخـرج منه .. مجـرد بوق .. أو راديو .. أو أسطوانة .. أو شـريط تسـجيل ..

هل هـى أرواح ؟

ومَنْ هما دون كاميللو ودون فارجا ؟

هل لهما وجود ؟

ورأيت راغب دميان يفتح عـينيه ببطء .. ويتلفت حوله . ثم يمد يده فى ضـعف ، فيـضغط على مـفـتاح ، فـينطفىء الوهج المشع ويتوقف الأزيز .

واكتشفت أن هناك جهاز تسجيل صغيراً كان يسجل ما يجرى طول الوقت .

وكان وجه دميان شديد الشحوب وعيناه حمراوين مثل كأسين من دم .

ورأيته يمـيل على ترموس صغـير يفتـحه ويجرع منه جـرعة شرهة .

ورأيته يدير جهاز التسجيل ويستمع إلى الأصوات التى سجلها فى أثناء غيبوبته ويدوِّن ملاحظاته فى نوتة .

ثم يتثاءب ويقـوم متعباً .. وينظر فى سـاعة يده ويمسح على جبهته ثم يطفىء النور ويخطو إلى غرفة النوم .

ولم أتحـرك من مكانى حتى سـمعت صـوت باب غرفـة النوم يغلق .

وكانت أول فكرة خطرت لى أن أسرق كـراسة المذكرات ولكنى

خفت أن يتيقظ فى الليل ويدخل المعمل فيكتشف السرقة .. وربما استبد به الخوف، فهجر مخبأه وفقدت أثره إلى الأبد .

ولهذا آثرت أن أترك كل شىء على حاله ..

وانسحبت عائداً فى خفة من حيث أتيت .

ومع أول نسمة من هواء الشارع البارد برق فى ذهنى خاطر .

أن أتصل تلغرافياً بسفير مصر فى أسبانيا ، وهو صديق عزيز، أسأله كل ما يستطيع معرفته بشأن دون ميجولو فارجا ودون سباستيان كاميللو .

وهل كانا ضمن جنود الحرب الأهلية الأسبانية وماذا كان مصيرهما .

كان أملاً واهياً ولكنى تعلقت به .

وكانت الساعة العاشرة مساءً تدق فوق رأسى وأنا أكتب آخر كلمة فى التلغراف وأسلمه إلى موظف المكتب .. والمطر ينزل رذاذاً فى الشارع وأنا أقود عربتى فى طريقى إلى البيت .. والشارع يلمع فى المطر .. وعقلى سابح فى ألف فكرة وفكرة .

هل أنا أهذى ؟

هل كان هذياناً كل ما رأيت وسمعت .. هل هو كابوس .. هل أنا أحلم ؟

ذلك الحديث بين اثنين لا وجود لهما .. دون كاميللو ودون فارجا ..

وهو حديث يبدو منه أنهما يتكلمان من سريرين متجاورين فى

مستشفى ، وأنهما أسرى حرب ، وأنهما جرحى .. وموضوعان في الجبس ، وأنهما يصارعان الموت .

وآخر كلمة في الحديث هي صرخة دون كاميللو بأنه يريد أن يعيش .

من الواضح أن أسبانيا لا تخوض حرباً .. وأن الحديث هو حديث عن حرب انتهت .. أغلب الظن أنها الحرب الأهلية الأسبانية. الحديث كله مجرد ماض بعث حياً على لسان دميان الذى كان أشبه بوسيط .

هل ممكن ؟

هل ممكن أن تعيش الأصوات في الجو هذه السنوات حتى تجد وسيطاً ، فتعود لتبعث من جديد على لسانه .

أم أنها صرخة الإرادة المتشبثة بالحياة هي التى أعطت لهذا الماضى الذى انعدم رخصة الحياة من جديد .

هل هى معجزة إرادة .. وصرخة إصرار ؟

وإرادة مَنْ ؟!

إرادة رجل مات .. ومن المفروض أن تكون إرادته قد ماتت معه.

هل أنا أعود فأهذى من جديد ؟

إنه لشيء مربك حقاً .



كنت أروح وأغـدو فى غـرفـتى التى أغلقت بابهـا .. ثم أعـود فأجلس فى فراشى .. ثم أقوم فأقعد أمام مكتبى .. ثم أعود فأخط بعض الحروف على الورقـة .. أفكر وأكد ذهنى ، وكأنى أمـام لغز من الكلمات المـتقاطعـة لا تلتقى فيـه كلمة على كلمـة .. أحاول أن أستجمع الحقائق الغريبة المتناثرة فى هذا اللغز المتشابك .. من أول اليوم المشئوم الذى طالعت فيه وجه دميان .

جريمة ١٥ شارع ابن الوليد بحدائق القبة .

والجثة المنزوعة الرأس فى مقابر الروم الكاثوليك .

والمخ المقطوع قطعاً طولياً فى حـوض الفورمالين وقد نزع منه الجـسم الصنـوبرى ، وذلك العـدد من الأمـخـاخ المـتـراصـة فى الأحواض .

أين رءوس أصحابها .. وأين جثثهم ؟

مـاذا يفـعل ذلك المجنون بالآلة الجـهنمـيـة التى يسلطهـا على رءوس ضحاياه ؟

وأية أشعة رهيبة اكتشفها ؟

وما هى تلك البحوث المريبة التى يجريها على الحيوانات المنوية التى يستخلصها من ضفادع حية ؟

وما هو السائل الأزرق الذى يستخدمه فى تجاربه ؟

وما سر النوبة التى تستولى عليه ؟

وما حقيقة الأصوات التى يهذى بها فى نومه ؟

عشرات الأسئلة .. وعلامات الاستفهام .

وأشد ما يفزعنى إحساسى بأن الرجل فى طريقه إلى هاوية .

ماذا يحدث لو أنه فقد عقله ؟

معنى هذا أن تنقطع صلتنا بالحقيقة إلى الأبد .

كان لابد من وسـيلة لاكتشاف كل شىء قـبل أن يفوت الوقت ولكن كيف ؟

كيف يمكن أن نعرف ما بداخل جمجمة ؟

كيف نكشف ما يدور فى عقل ؟

كنت أروح وأجىء فى عصـبية حينما دق الـباب ودخل الخادم يحمل تلغرافاً .

كان هو التلغراف المنتظر من أسبانيا .

وقرأت الرد المكتوب باختصار شديد :

« دون سباستيان كاميللو مصارع ثيران مات فى الحرب الأهلية الأسبانية ودون ميجولو فارجا لم يمكن التعرف عليه » .

إذن فهى الحقيقة .

لم تكن الأصوات هذياناً .. ولم تكن الأسماء اختلاق عقل مجنون وإنما هى أسماء لناس عاشوا بالفعل .

وما دار من حديث هو تحصيل حاصل .

لقد دار هذا الحديث ذات يوم منذ سنوات بين أسيرى الحرب دون كاميللو ودون فارجا ، وهما يصارعان الموت فى مستشفى بعد انتهاء الحرب الأهلية الأسبانية .

وما فعله دميان هو أنه التقط هذا الحديث من العدم .

كيف تمت هذه المعجزة ؟

عن طريق عضو مجهول من أعضاء المخ ، غالباً عضو معطل عندنا هو الجسم الصنوبرى .. استطاع دميان أن ينبهه بقذائف الإشعاع وبالمادة الكيميائية التى يحقنها فى الدم .. فإذا به يتحول إلى حاسة مرهفة .. عين داخلية ترى وتسمع من خلال الماضى .

رادار يكشف شبكة الحوادث ويخرق حجب الزمن .

أمر يثير العجب حقاً !

ولكن مَنْ يدرى ؟

ماذا لو فكرت دودة عمياء أن فى جهازها العصبى البدائى بذرة السمع والبصر ؟

مــاذا لو فكرت أنها ذات يوم ســيخــرج لهــا حفــدة لهم عيــون وآذان.. لا شك أنها تعجب ولا تصدق .

وكذلك حالنا نحن العــميان بالنسبة للمســتقبل .. لا نصدق أنه يمكن أن نرى فى الزمان كمــا نرى فى المكان .. وأن التاريخ يمكن أن يتحــول بالنسبــة لنا إلى مســرح مرئى .. وأن فى مــخنا بذرة لجهاز عــجيب يمكن أن يستطلع الماضى ويرى ما حــدث فيه رأى العين .

إنه أمر مثير حقاً !

إن وجه الدنيا ليـتغير كثيـراً إذا قدر لنا أن يتسع نطاق رؤيتنا إلى هذا المدى ، فنرى الماضى كما نرى الحاضر ، ونسمع الأحداث التى ولت وغبرت كما نسمع الأحداث التى تجرى حولنا الآن .

إننا نصبح كالملائكة .. كالأنبياء .

ولكن كيف يمكن ذلك ؟

كيف يمكن أن أضع يدى على السر ؟

كيف أصل إلى ما كشفه ذلك الرجل ؟

لا بد من خطة ..

وكنت أعرف الطريق جـيداً هذه المرة .. فقد أخذت طابــعاً لثقب الباب بالشمع واصطنعت لى مفتاحاً خاصاً .

ودخلت خلسة ، وكان دميان فى الخارج .

وكان كل شىء فى المعمل على حاله .

وكانت هناك غلاية للحقن تغلى فوق سخان كهربائى .

ولاحظت وأنا أضع يدى على جهاز الأشعة أنه ساخن ، مما يدل على أنه كان فى حالة تشغيل منذ مدة قريبة .

وقبل أن أفكر كيف حدث هذا .. كنت أسمع خطوة دميان على السلم وصوت مفتاحه يدور فى الباب ..

وأسرعت لأختفى وراء البارافان .

ورأيت دميان يدخل .. وفى يده لفافة كبيرة .

ورأيته يضع اللفافة على المائدة ويفتحها .

كان بداخلها صندوق زجاجى فيه عنكبوت .. واحد من تلك العناكب الضخمة التى تكثر فى المناطق الاستوائية الحارة .. وسرت فى بدنى قشعريرة وأنا أنظر إلى رأس الحشرة وإلى العيون العديدة الصغيرة التى تبرق فيها .

وكان يخيل إلىَّ أن هذه العيون ترمقنى فى مخبىء .

وبين لحظة وأخرى كان العنكبوت يدور حول نفسه ويدير رأسه المتعددة العيون كأنها قبة مرصد فلكى ، وينظر إلى محتويات الغرفة .

وكنت أرتجف فى مكانى حينما تقع عيونه الكثيرة علىَّ .. ولم تدم هذه اللحظات طويلاً .. لأن دميان - وفى يده آلة تشريح

غريبة تشبه شوكة ذات فرعين ـ ما لبث أن فتح الصندوق .. وغرس الشوكة فى خفة فى ظهر العنكبوت .. وبمشرط صغير قطع العنكبوت الحى قطعاً طولياً ..

ثم بدأ يعمل مشرطه فى مهارة وسرعة فى منطقة الرأس ..

وبعد لحظات كان ينتزع كتلة هلامية بيضاء كروية الشكل ويضعها فى أنبوبة اختبار بها محلول .

ورأيت الكتلة الهلامية تذوب بالتدريج فى المحلول لتتحول إلى مستحلب أبيض .

ورأيت دميان يشرع فى إضافة عدة محاليل إلى المستحلب ، ثم يضع المزيج فى جهاز يعمل بقوة الطرد المركزية ليفصل الرواسب وحدها .. والمحلول الرائق وحده .

وبعد إدارة الجهاز عدة دقائق رأيته يضع الرواسب فى دورق زجاجى ويضيف إليها قطرات من حامض كبريتيك مركز وكحول، ثم يكمل الدورق إلى منتصفه بالماء المقطر .. ثم يبدأ فى عملية أشبه بالتقطير .. كان يضيف فيها قطرات من محاليل عدة .

وبمضى الوقت اختلطت علىَّ تلك العمليات الكيميائية لكثرتها فلم أعد أستطيع متابعة تفصيلاتها وخاصة أن أغلب المحاليل التى استعملها كانت محاليل مجهولة بالنسبة لى .. كل ما فهمته أنه يعالج هذه الخلاصة معالجة كيميائية شديدة التعقيد .. ليخرج فى النهاية بسنتيمترات قليلة من سائل أصفر .

ورأيته يتناول هذا السائل بأيد ضنينة ليضعه فى الأتوكلاف ثم يضبط ساعة الأتوكلاف على وقت معين .. ثم ينظر حوله فى راحة ويتثاءب ويغادر المعمل ذاهباً إلى غرفة نومه .

كان يقوم بكل خطوة فى هدوء وثقة .. مما يدل على أنه يعرف سلفاً ماذا تعنى هذه الخطوة .. للدرجة التى يستطيع فيها أن يترك المعمل ليذهب وينام وهو مطمئن أن كل شىء سيسير على ما يرام.

ومضت دقائق .

وسكنت الحركة فى غرفة النوم .

وكان معنى هذا أنه نام .

ولم أستطع أن أقاوم فضولى .. فخرجت من مخبىء .. وكان أول ما اتجهت إليه هى ساعة « الأتوكلاف » لأعرف على أى وقت ضبطها .

ورأيتها مضبوطة على العاشرة .

معنى ذلك أنه أعطى نفسه ساعتين راحة .

ومعنى ذلك أن أمامى ساعتين قبل أن يدق جرس « الأتوكلاف » فيوقظه ..

ساعتان .

وقت طويل .. ولكنه بدا لى فى تلك اللحظة قصيراً جداً .

نظرت إلى العنكبوت وإلى رأسه المشقوق .. وإلى الحفرة

الشاغرة حيث كانت تستقر الكتلة الهلامية التى انتزعها .

لم يكن مخ العنكبوت كما خيل إليّ .. ولكن غدته اللعابية .. لقد فتح دميان رأس العنكبوت ليحصل على غدته اللعابية .

كان هذا أمراً غريباً بالنسبة لى !

لماذا يتجشم دميان كل هذه المتاعب ليحصل على الغدة اللعابية لعنكبوت ؟

وفتحت كراسة المذكرات .

ومضيت أقلب صفحاتها .. وكانت أغلب الصفحات مكتوبة بشفرة كيميائية خاصة .. لا سبيل إلى معرفتها إلا بمعرفة مفتاح الشفرة .

وفى صفحة رأيت بعض عبارات بالقلم الرصاص :

● خلاصة من براعم نبات الأكادينيا .

● سرعة نمو البيضة الملقحة (الجنين) فى محلول ملحى قلوى .

● الهرمونات كعامل مساعد .

● لا يمكن رفع درجة حرارة المحلول أكثر من أربعين درجة وإلا ماتت جميع الحيوانات المنوية .

وكلمات أخرى مشطوبة لم أستطع قراءتها .

كان من الواضح أنه يجرى بحوثه فى فروع مختلفة كل الاختلاف .

مسألة حيرتنى غاية الحيرة .

حاولت أن أخرج بخيط مشترك يمكن أن يربط الغدة اللعابية لعنكبوت بالحيوان المنوى بالبيضة الملقحة فى الجنين بالبراعم فى نبات الأكادينيا .

أية رابطة يمكن أن تربط هذا الخليط ؟

نعم .. أية رابطة ؟

يبدو أن هناك خيطاً بالفعل .

خيل إلىَّ أن هناك رابطة .. فجميع هذه الأشياء تشترك فى صفة الحيوية والنمو السريع .

البرعم فى النبات هو أكثر أجزاء النبات حيوية وأسرعها نماء ، وكذلك الجنين .. وكذلك الغدة اللعابية للعنكبوت ، فهذه الغدة هى التى تصنع الخيوط التى يغزل بها العنكبوت بيته ، ولهذا فهى أكثر الأعضاء نشاطاً وحيوية والحيوان المنوى هو الآخر يحمل بذرة التجدد والحياة فى كيانه العضوى الضئيل كأكثر ما تحمل خلية نشطة .

إن دميان يبحث إذن فى سر النشاط والحيوية والنمو والتجدد، ويختار خاماته الحية من الأعضاء التى تتصف بهذه الصفات .

وهو يهدف من عمليات الاستخلاص الكيميائى العثور على المادة السحرية .. المادة الباعثة للحياة والنماء والنشاط .

إنه يبحث عن المنبه الطبيعى للحياة .

وفتحت « الأتوكلاف » .

كانت فيه عدة خلاصات مرقمة .. على كل واحدة رقمها وحروف بالشفرة عن مصدرها .

وفى ركن رأيت أنبوبة فيها السائل الأزرق الذى حقن به نفسه.

وتناولت الأنبوبة .

وشممت رائحة غريبة .

كان السائل له رائحة غريبة أشبه برائحة الثوم .

وبينما كنت أتفحص السائل سمعت حركة ورفعت عينى لأفاجأ بدميان واقفاً أمامى .

كانت عيناه حمراوين مثل كأسين من دم ، وجفونه وارمة .. وخداه منتفخين .. وشعره مشعثاً .. وكان يخطو ببطأ كأنه يتعلم المشى .. ويكاد يقع فى كل خطوة .

وكان يفتح فمه ليحاول الكلام فلا يستطيع النطق .. وكان يمد يده فى ذعر إلى الأنبوبة التى فى يدى ، وترتجف شفتاه ، وتظهر على جانبيهما رغوة ..

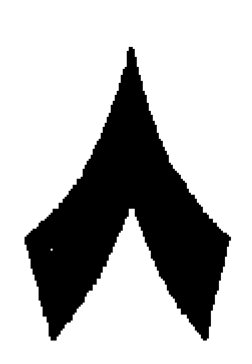
ورأيته يأخذ نفساً طويلاً كأنه عطشان إلى الهواء . ثم يتهاوى على الأرض .

أسرعت إليه .. كان يلهث .. ويفتح عينيه ويغلقهما .. ثم يغيب لحظة عن وعيه .. ثم يعود ينظر حواليه ويهمس :

– أنا لم أقتل أحداً .. أنا قتلت نفسى .. الذين ماتوا لم أقتلهم

ولكنهم ماتوا لأن عمرهم انتهى بعد أن عاش كل منهم مليون عام.. ماذا كانوا يطلبون من الدنيا أكثر من هذا .. أنا أيضاً عشت مليون عام .. أنا رأيتك منذ ولدت أول مرة .. أنت لا تعلم أنك ولدت مرات ومرات .. مرات كثيرة لا تعد ، وأنك عجوز .. عجوز .. عمرك مثل عمر الهرم الأكبر .

وبدأت عيناه تغيمان وبدأ يسرح ويهوم فى عالم آخر وينظر إلىَّ كأنه ينظر من خلالى إلى فراغ .



كان دميـان فى حالة عقلية عجيـبة ، أشبه بالغيـبوبة .. ولكنها ليست غيـبوبة ، بل هى قـريبة من اليـقظة والتفـتح والشـفافـية والجلاء البصرى .

كان ينظر إلى الأشياء وكأنهـا تشف له عن معان وأشكال غير أشكالها .. وكان ينظر إلى وجهى ويبتسم كالأطفال ويهمس :

– أناديك بأى اسم .. أنت لك أسماء كثيرة أكثر من ألف اسم .. أناديك باسـمك أيام المماليك .. أم أيام الأتراك .. أم أيام الخـلافـة الفاطمية .

تصور أن اسمك كان فى يوم من الأيام « بهلول الحلبى » .

وضحك ..

وخيل إلىَّ أن الاسم يبدو مألوفاً بالرغم من غرابته .

وأردف دميان وهو يبتسم :

– بهلول .. بهلـول .. تصور .. أصـلك كنت بهلول الخليـفـة ..

البهلول الذى تتشقلب أمامه لتضحكه .. كنت قصيراً طول ذراعى هكذا .. نعم .. وهذا أنت أراك أمامى الآن وأنت تتشقلب زمان (وأغرق فى الضحك) .. كنت ظريفاً جداً أيها البهلول .

ثم عاد ينظر إلىَّ فى وقار ..

– الدكتور م. داود دكتوراه فى جراحة المخ من برلين .. رجل علم محترم ، يقف له كل مَنْ يراه .. أين هو من بهلول الخليفة .. تاريخ .. كل منا تاريخ .. كل منا حكاية طولها مليون سنة .. ألا تريد أن تعيش مليون سنة .. أنا عندى أكسير مَنْ يأخذه يعيش مليون سنة .. يعيش الماضى الذى مات .. ويقلب صفحات كتاب الدنيا كله .

إن المخ شىء عجيب .

أنت تخصصت في جراحة المخ .. ولكن مثل كل المتخصصين لا تفهم شيئاً .. إن المخ عالم كبير .. أرشيف .. فهرس .. مرجع شامل ، كل يوم من أيام التاريخ مكتوب به ورقة فى مخك من الأزل .

من منشأ الحياة .. كل يوم مدون . ورقة بورقة .

هل تريد أن تقلب أوراقك ؟

هل تريد أن تعيش تاريخ كل الأزمان ؟

وسكت لحظة وأمسك برأسه بين كفيه وظهر على عينيه الألم ..

وغامت نظراته .. ثم عاوده اللهاث .. ورأيت حدقتيه تتسعان .

وخرجت الكلمات من فمه كالصفير الخافت المتقطع :

– لا أمل .. أنا سـوف أمـوت ..! .. أمـوت .. كل شيء يـغـيم أمـامي.. الدنيـا تصبح ظـلاماً .. النور .. النـور .. دكتـور داود .. الأكسير .. الأشعة .. الـ ..

وأمسك برقـبته وهو يتلوى كأنما هناك أيد تخنقـه وهو يصرخ فى صوت كالفحيح :

– أنا لم أقتل أحداً .. أقول لكم إنى لم أقتل أحداً .. أنا وهبت كل واحد مليـون سنة .. مليـون سنة .. القتـيل الحقيـقى هو أنا .. أنا الذى أموت الآن ولا أجـد لحظة .. لحظة واحدة أعيـشها . دكـتور داود الأكسير ..

وتلقيته على صدرى وانطلق لسانى الذى عقده الفزع :

– أين هو الإكسير ؟

– الإكس ..

– ما هو تركيبه ؟

وسكت وأغمض عينيه على حين رحت أهزه فى عنف وأصرخ :

– تركيبه .. أرجوك ..

وخرجت كلماته مفككة :

– تركيـ .. ب .. ب .. ب ..

وألقى برأسه إلى الوراء ولفظ نفسه الأخير .. مات ..

لم أصدق ..

لمست عينيه .. لم تطرف ..

كانت حدقتاه تلمعان كالزجاج . وتحملقان فى الفراغ ..

انتهت حياة دميان ..

مات آخر أمل من آمالى على شفتيه .

ونظرت حولى فى فزع ..

وأدركت الحقيقة الرهيبة كلها دفعة واحدة .

إنى الوارث الوحيد للسر ..

لا أحد يعلم حياة دميان وموته سواى .

كيف أتصرف ؟

إنى ساكن مع جثة فى « فيلا » على الطريق الزراعى .

ورأيت نفسى أفكر كطبيب .

إن الحصول على كلمة واحدة من دميان أصبح مستحيلاً ولكن ..

ولكنى أملك جسده ..

أملك مخه .

أستطيع أن أعرف بضربة مشرط ماذا حدث بداخل هذا المخ الذى أصبح يرى الماضى ويخترق حجب الزمن .

ورسالتى كرجل علم تقتضى منى أن أفعل شيئاً .

وشعرت بالوقت يمضى وكأنه قطار مسرع تدهمنى عجلاته .

كان لا بد من العمل بسرعة قبل أن تتيبس الأنسجة .

ونظرت إلى حقيبة آلات التشريح ، وإلى المشرط الذى كان يعبث فى عنكبوت منذ ساعة مضت .

وغلب فضولى العلمى على خوفى ، فتناولت المشرط وبدأت أعمل بسرعة .

واحتجت إلى منشار لقطع العظم .

وكان فى الحقيبة أكثر من منشار واحد .

لا شك أن دميان كان يقوم بهذه العملية كثيراً بدليل وجود هذه المناشير .

وبعد ثلاثين دقيقة من العمل المحموم استطعت أن أصل إلى المخ .

كان يبدو عليه الاحتقان ، وكانت الشعيرات الدموية متمددة بشكل ملحوظ .

وكان أول شيء لاحظته حينما قطعت المخ طولياً أن الجسم الصنوبرى ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعى .

وانتزعته فى حذر ووضعته فى محلول ملحى .

كان السر كله كامناً فى هذه الترمسة الصغيرة .

وشعرت بأن الجزء الباقى من العمل هو أخطر الأجزاء ، أن أقطع مقاطع ميكروسكوبية فى هذه الترمسة ، وأفحصها فحصاً ميكروسكوبياً لرؤية التحولات التى حدثت فى خلاياها.

وكنت أتوقع أن أجد المعدات اللازمة ، فهذه عملية كان يقوم بها دميان بانتظام كل مرة .

وكان توقعى فى محله ، فقد وجدت فى ركن جهازاً حديثاً لقطع المقاطع المطلوبة ، وكأنما كان دميان يعلم احتياجاتى كلها، فوضع كل شيء فى متناول يدى .. وبدأت أقطع عدداً من المقاطع وأصبغها تمهيداً لدراستها تحت الميكروسكوب .

وحينما وضعت عينى على عدسة الميكروسكوب لأرى أول مقطع .. كان المنظر الذى رأيته منظراً مألوفاً .

كانت الخلايا أشبه بالخلايا السرطانية .

لا شك أن هذا المقطع هو نفس المقطع الذى رأيته فى شقة ١٥ شارع ابن الوليد تحت الميكروسكوب .. وساعتها خيل إلىَّ أنه نسيج جنينى .

لم يكن نسيجاً جنينياً ، لقد كان شريحة من الجسم الصنوبرى.

هل هو سرطان ؟

لا ليس سرطاناً .. بدليل عدم وجود انقسامات فى الخلايا .

وإنما وجه الشبه بينه وبين السرطان هو حيوية الخلايا ، وسرعة نموها ، وشدة قابليتها للصبغة .

إن خلايا الجسم الصنوبرى فى حالة انتفاضة ونشاط .. وهذا كل ما فى الأمر .

ولا شك أن دميان استطاع أن يصل إلى هذه النتيجة باستخدام الإكسير الذى أخذه حقناً فى الدم .. وباستخدام التنبيه المتكرر بالإشعاع .

كانت القصة قد بدأت تتضح .

ولكن كيف كان دميان يستحضر أكسيره من خلاصات البراعم النامية وغدد العنكبوت والحيوانات المنوية ؟

ما هى المعالجة الكيميائية بالضبط ؟

النوتة تحكى التفاصيل بالشفرة .

ولا أحد يعلم مفتاح هذه الشفرة إلا صاحبها الذى سكت إلى الأبد .

ولكن الأكسير موجود .

وربما أمكن تحليله والوصول إلى مكوناته .

وهناك جهاز الإشعاع .. الذى يمكن الوصول هندسياً إلى معرفة كنهه .

هناك أكثر من أمل .

ولكن كان هناك شىء آخر أهم من هذه الآمال بالنسبة لى .

اختبار أهم من جميع هذه الاختبارات الكيميائية .. هو الاختبار الحى ..

أن أجرِّب .

أن أجرب بنفسى هذه اللعبة .

أن أعيش مليون سنة .

أن أرى الماضى .

كانت الفكرة تفزعنى .. ولكنها تخدر إرادتى وتتسلط على حواسى .

نسيت كل شىء ، ولم أذكر إلا شيئاً واحداً .

أن أتناول الأكسير ، وأتلقى ذلك الإشعاع السحرى لأرى ما لم تره عين وأسمع ما لم تسمع أذن .

آكل من الشـــجرة المحـرمة .. شـــجـرة المعرفـة .. وأدخل الجنة الموعودة .

كانت الفكرة تخدرنى تماماً .. تسلبنى عقلى .

كنت كطفل أمام قطعـة حلوى باهرة يعلم أن دماره فيـها ولكن ريقه يتحلب ليتذوقها .

وبفطرة لا تقـاوم ، مثل فطرة آدم الـتى شدته إلى التـفاحـة ، وجدت نفسى مشدوداً إلى مصيرى .

كانت كل حوافز حياتى تلقى بى إلى ذلك السر .

نعم .. كنت أريد أن أعـيش « المليـون عـام » ، وأولد « المليـون ولادة » وأذوق هذا الذى هو أشبه بالخلود .

ووجدت يدى تمتد إلى الحقنة تملؤها بالسائل الأزرق .. وبدفعة خفيفة من الإبـرة فى الوريد .. كان السائل ينساب فى دمى ببطء ومع حركة السائل فى الدم كنت أحس بشىء كـالنضارة ، انتعاش غامض مـثل ارتجاف الأوراق الخضـراء فى ندى الربيع ، يقظة .. انتفاضة .. نشوة .. عنفوان .. تفتح مثل تفتح البراعم .

إحساس غريب طازج .

صبوة نحو كل شىء .

كان كل شىء يبدو فى عينى متألقاً جذاباً .

هذا رحيق مستقطر من ينابيع السعادة .

ودقت ساعة الحائط الكبيرة .

وتذكرت الدقائق العشر .

كانت أمامى عشر دقائق لأكون جاهزاً لأتلقى الإشعاع .

وأفادتنى معلوماتى الطبية وخبراتى فى المقاييس المترية للدماغ فى ضبط براجل الجهاز وروافعه الدقيقة وفى توجيه أنابيب الإشعاع الثلاثة إلى أماكنها المضبوطة من رأسى ، بحيث تلتقى حزم الإشعاع عند مركز المخ فى الجسم الصنوبرى .

وأدرت مفاتيح عدادات الفولت والأمبير .

لم يبق إلا أن أضغط على المفتاح الأحمر فتبدأ النهاية .

وبشوق لا حد له .. وكأنى ألمس شفتى أجمل امرأة .. ضغط على المفتاح .

وتوهجت أنابيب أشعة المهبط بوهج خافت وارتفع أزيز مكتوم.

٩

كان ما حدث شيئا لا يمكن وصفه .

كل قاموس الكلمات لا يسعفنى .

حينما أقول إن الفزع استولى علىَّ .. فإنه ليس الفزع المألوف الذى نعرفه ، ولكنه فزع آخر لا اسم له .

فزع أقرب إلى تبخر الذهن وتطاير العقل ، وكأنما قد فتح ستار فإذا عالم مخيف ، تيه تضل فيه الحواس .

سماء حمراء غبراء تلف كل شىء فى غبرتها .. أرض تختلط فى ملامحها ظلال أبحر عديدة وجبال وأودية ، مدن عتيقة ، وشوارع مبلطة ، وحوار مسقوفة ، وناس فى ملابس تاريخية ، وأصوات مختلطة .

وأصابنى هذا الانتقال الفجائى بالتشنج، فانعقد لسانى وفقدت النطق . وفقدت الحركة ، وتحولت إلى عينين محملقتين مثل حفرتين من جبس تنظران فى فراغ .

ولكن بمضى الوقت بدأ يسيطر علىَّ شعور آخر مختلف تماما عن الشعور الأول .

بدأت أشعر بأن هذا العالم الغريب الذى أزيح عنه الستار ليس غريبا تماما . وإنما هو عالم مألوف إلى حد ما .. أستطيع أن أتعرف فيه على ملامحه .. عالم أصيل حقيقى .. أكثر واقعية من عالمنا المألوف .

بل إنى لأكاد أسمى الأشياء أمامى بمسمياتها .. وأكاد أستوقف الناس الذين يهرولون فى مواكب لا حصر لها وأناديهم بأسمائهم.

هذا عالم أعرفه .. وناس أعرفهم .

هذا عالم عشته .

بماذا أصفه لكم ؟

إنه أشبه بعالم متداخل .. تتداخل فيه الصور وكأنها صور شفافة مرسومة فوق زجاج ، وموضوع بعضُها فوق بعض .. تشف كل صورة عن الصورة التى تحتها .

كل شخص يشف عن شخص آخر بداخله .. وهذا الآخر يشف عن شخص ثالث ورابع وخامس إلى ما لا نهاية .

ويمثل ما تتداخل الصور تتداخل الأصوات والألوان .. وتتداخل الحوادث .. وتتداخل الفترات الزمنية .. وتتداخل الأحقاب والعصور فى عوالم مزدحمة كأنها الحشر .. وبرغم ذلك فهى لا تختلط على العقل وإنما تبدو مميزة متباينة .. وأعجب من هذا أنها تبدو مفهومة .. وطبيعية وكل فرد فى هذا العالم لا يبدو فرداً

واحـداً .. وإنما يبدو ألوفـا مؤلفـة من الأفراد والشـخوص ، مـثل الصور المكررة فى شريط سينمائى منظور إليه بالعين المجردة .

إن ما تراه العين فى هذا العالم ليس الفرد ولكن تاريخه .. إنها ترى حجمه وزمنه .

والزمن فى هذا الـعـالم ليس يدرك بالبـداهـة .. وإنما هو بعـد حقيقى تراه العين .

وهو ليس عالما خرافيا ، بل هو عالم حقيقى .

عالم يعرفنى كما أعرفه .

هذا واحد فى الزحام اللانهـائى ينظر إلىَّ ويبتسمْ .. ويناديني باسمى « إيزاك » .. نـعم هذا هو اسمى « إيزاك » .. أنا أعلم جـيدا أن اسمى « إيزاك » .

وها نـحن نذهب معا إلى حانة تحت ربع قديم لنسكر .

الحـانة أعـرفـها ، والمكـان أعرفـه ، السـاقى أعـرفـه ، والكل يبتسمون فى وجهى ابتسامة الألفة والعشرة الطويلة .

وصـديقى « دكران » يحـدثنى عن الجـارية التى اشتـراها من سـوق النخـاسة ، ويحـدثنى عن رائحـة عـرقـها ، وعن فـخـدها الممـتلىء ، وأنا أضـحك ، وأشرب ، ويجىء الـشواء ، والتـوابل ، وصـديقى يقول : ذق من هذه التـوابل .. إنهـا من توابل البصـرة اللذيذة .

وعلى باب الحانـة نسمع صوت ترس وزرد وصليـل أسلحة .. ثم صرخة .. وأنين محتنق .. وخطوات مسرعة .

ونقوم ونحن نترنـخ .

وعلى باب الحانة نجد فارسا مذبوحا يلفظ آخر أنفاسه .

وأميل عليه وأضـع يدى على قلبه .

وأرفع يدى الملـوثة بالدم لأجـد علـى رأسى جنديا مـدجـجـا بالسلاح يقول لى : إيزاك اللعين .. يا قاتل .. يداك تقطران دما .

وأتلفت حولى .

لقد فر صديقى بجلده .

– إيزاك اللعين .. يا تاجر السم .. يا لعنة أهل بغداد !

– أنا لست تاجـر سم يا صـديقى ، سـامـحك الله... أنا تاجـر عقاقير.

– أهى عقاقير . أم أحجبة أم رقى مسحورة يا كافر يا نجس .

– مـالى أنا ومـال السـحـر .. اتركنـى يرحـمك الله .. أنا رجل فارسى غريب ولست من هذه البلاد .

– الليلة تحل ضيفا على سجن القـداحة يأيها الفارسى الغريب وغدا تقف أمام القاضى العادل « أبو قطافة » وبعد غد تذهب بإذن الله إلى القرافة .

– أنا برىء والله العظيم .

– بأى عظيم تقسم أيها الكافر .

– أنا برىء يا ناس .

– يا فارسى يا نجس .

– أنا برىء يا خلق .

وأصرخ فيه وأقبِّل يديه وقدميه وأنا أرتجف رعبا .. ولا فائدة .

وفى سجن القداحة أقضى الليل فى الظلام والرطوبة والبرد الذى يتخلل العظام . ومن حولى دبيب هوام . وحفيف أشياء تزحف .. وأصوات سعال .. وحشرجة ناس تموت .

وفى الصباح أقف أمام القاضى أبو قطافة .. ويشهد الجندى شهادة عيان بأنه رآنى أقتل .. ورأى يدى مخضبتين دما .. ويحكم القاضى علىَّ بالإعدام . ويضرب السياف عنقى أمام بوابة « أمية » وأموت .

ولكنى لا أنتهى .

وفى هذا العالم الغريب لا أحد ينتهى ، الكل يولد من جديد ويعيش حياته مرات لا نهائية .

فأنا مرة أخرى فى دير البلح فى صحراء سيناء .. الأسقف « حنين » الأب الطيب الذى يفيض قلبه محبة .. حياتى صلاة وتعبد.. وطعامى من التمر الجاف والشعير .. ونهارى الطويل أقضيه فى التأمل وسبحات الفكر .. والناس يسعون إلىَّ من أطراف الأرض لأمنحهم البركة .

يا لها من حياة كلها سماح !

لا .. لم أكن أحلم .

وحينما ضرب السياف عنقى أمام بوابة « أمية » لم يكن ما شعرت به كابوساً ، لقد كنت أعيش وأموت .. وكانت حياتى حقيقة ، وكانت آلامى واقعاً .

وفى تلك اللحظات حينما كنت أتذكر نفسى ـ أنا الدكتور داود ـ كانت هذه الذكرى الشاحبة هى التى تبدو لى كالحلم ، يا لها من رؤى !

عشرات المرات أكتشف نفسى فى عشرات الأماكن بعشرات الأسماء .. وفى كل مرة أخرج إلى الدنيا بشخصية مختلفة وكأنى إنسان جديد كل الجدة .

الزمن جميعه أصبح ملكى وكأنه بوبينة فيلم أتفرج فيه على جميع اللقطات التى أخذت لى فى جميع الأوضاع والأسماء .

مئات السنين عشتها .. وعانيتها يوماً يوماً .. كل يوم له نضارته وحلاوته ومرارته .. وكأنه أول وآخر يوم فى العمر .

قابلت « ماتيلدا » الجميلة ذات العيون الخضر فى سوق قرطبة ذات مساء وكانت تحمل سلة بها تين .

وتحت ضوء قمر أبريل الدافى الحنون سرنا متخاصرين .

تحمل الأنسام وشوشاتنا .

ما أحلى القبلة المختلسة !

ولمسة الأنامل المرتجفة حينما تعثر على بعضها .

وذلك الخدر والدوار .

وملمس الشعر ذى الجدائل .

ورائحة الطيب .

وهمس الحنان .

ماذا تفعل ظبة السيف حينما تطعن قلباً أحب وعشق ؟

لا شيء ، لقد أحب وعشق .. لقد عاش ملء وجوده .. الموت لن يسلبه شيئا .

إننا ننفق من ثروة أبدية لا تنفد .

إن عمرنا ملايين السنين .

عمرنا من عمر النجوم .

نحن لا نفقد شيئا ، ليس هناك ما يدعو للعجلة ، ولا للحسرة . ولا للندم ، فالعمر طويل .. طويل أبدى . والفرص لا نهائية .

كنت وأنا طفل أحلم بأني أقود الجيوش ، وأفتح الأمصار والأقطار .. وكان قلبى يخفق طربا وأنا أقرأ عن جينكيز خان وهانيبال والإسكندر .. وتعذبنى الأمانى والآمال .

لو أنى فتحت كتاب حياتى .

لو أنى عدت إلى الوراء ، ورأيت ما أرى الآن .

الحصار على أسوار عكا ، وغبار معركة « الحصن » .

وبريق السلاح الأبيض .. وأنا « ابن خزاعة » أحارب وظهرى إلى الحائط وليس فى جسدى مكان لم يرشقه خنجر .. وبوابة الحصن تنهار تحت طرقات المنجنيق .. وجيشنا يتدفق داخلا كالطوفان .. أكاد أتحسس مكان كل جرح فى صدرى وكتفى وساقى .

والألم المبرح ينفذ فى لحمى كالنار .. تزفه الطبول والأبواق وهتاف الجنود ..

يا لها من دنيا مليئة !

كنت أفكر .. وأتأمل فى شـرود حينما خـيل إلىّ أن هذه الرؤى تبتعـد وتغرق فى ضباب كـثيف ، وكأنما قد انسـدلت ستارة على المنظر كله فراحت تحجبه رويداً رويداً .

وشيئاً فـشيئاً بدأت أفطن إلى ملامح جديدة هـى ملامح معمل دمـيان .. والكرسى الذى أجلس علـيه .. وأنابيب أشـعة المهـبط .. وجهاز الأشعة بروافعه وعداداته .

لقد توقف الجهاز من تلقاء نفسه .. وأفقت تماما .

كان الجـهاز مضـبوطاً ضـبطاً أوتوماتيكيّاً عـلى مدة اشتـغال محددة .

ونظرت إلى سـاعة الحـائط ، واكتـشفت أن نصف سـاعة قـد مضت منذ بدأت الجلوس أمام الجهاز .

معنى هذا أنى قـد عشت مئات السـنين فى خلال هذه النصف ساعة .. فى خلال ثلاثين دقيـقة عشت كل هذه الأحداث التى تملأ مجلدات .

معنى هذا أنى كـنت فى عالم آخر له زمنه المخـتلف ومعـاييره المختلفة .. عالم.. الدقيقة منه تحفل بأحداث سنين ..

إنه اكتشاف رائع .

إننا سجناء دقائق مفلسة يمكن أن نعيـشـها سنين خصبة غنية إذا عـرفنا كيـف نخرج من أسْـرِها لنحلق فى أجـواء ذلك العـالم الآخر.

كيف نستطيع أن نحقق هذا ؟؟!

وكيف نستطيع البقاء فى ذلك العالم الآخر إلى الأبد ؟؟!

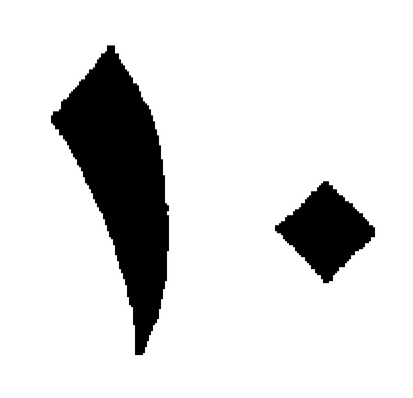
سؤال لا شك أنه كان يشغل بال دميان، فحاول أن يجيب عنه واستغرق فى هذه البحوث الكيميائية محاولا أن يصل إلى سر هذه الآلة العجيبة التى اسمها المخ .

إن المخ أرشيف.. فهرس . كما قال دميان .

سجل فيه محضر كامل بما حدث فى هذه الدنيا منذ بدء الخليقة مدوناً فى الخلايا ومكتوباً على لفائف الأعصاب .

كيف نبعث هذا السجل الحافل . كما نستعيد ذكرياتنا اليومية فى عقولنا كل لحظة .

هذه هى المعجزة التى حاول أن يحققها دميان باستخدام أكسيره العجيب .



كانت أمامى مهمة عسيرة .

أن أعرف تركيب الأكسير .

وفكرت أن أبدأ فى تحليله منهجيا .. ولكن العقبة كانت فى كمية الأكسير الموجودة .. كانت كلها لا تزيد على عشرين سنتيمترا .

معنى هذا أن أكتفى بقطرات لأجرى عليها اختباراتى . وهذا عسير .

وكانت هناك رغبة أخرى تنازعنى .. هى رغبة حادة ملحة فى الاستمتاع بهذه الكمية لأعيش تلك الحياة المسحورة وأعود إلى ضباب الماضى ولذّاته .

كانت كل قطرة فى طياتها وعداً مغرياً بحياة طويلة عريضة حافلة بالأحداث .

وكانت هذه الرغبة تتحول عندى إلى شهوة أكالة مسيطرة

متسلطة أقوى من شهوة المدمن إلى الأفيون .

وكان الضعف والتخاذل يستولى علىَّ كلما مددت يدى إلى أنبوبة السائل ، وكنت أشعر بأنها أثمن وأغلى وأقدس من أن تبدد فى أى غرض ، ولو كان هذا الغرض هو اكتشاف حقيقة .. فأية حقيقة أثمن من الحياة ؟!

إن هذا السائل الثمين هو وعد بالحياة لكل مَنْ يتعاطاه .. وأية حياة ؟ مئات السنين الحافلة بالمتع .

وأمام هذا الإغراء الأكال تحولت إلى إنسان سليب الإرادة .. ممدود الذراعين فى تسول خاضع خانع يتشهى قطرة .

فى دمى وفى نخاع عظامى نداء ذليل .

وفى قلبى فزع يراودنى .

ماذا لو نفد السائل ؟!

كنت أشعر بسعار .

سعار أقوى ألف مرة من سعار الجنس فى جسد فحل مراهق .

كرابيج تلسعنى .

وتذكرت دميان .. وهو يتجول فى المقابر مثل الخفافيش مصاصة الدم .. جرياً وراء هذه القطرات الملعونة .

إنه الجنون .

لقد أدركت سر نظرته المجنونة وهو يقف أمامى فى آخر مرة ينظر إلى السائل فى يدى .

لقد كادت عيناه تخرجان من محجريهما .

نعم .. لم يكن هناك سبيل إلى مقاومة هذه الشهوة المدمرة .

ورأيت نفسى أتحرك فى خطوات مخدرة إلى أنبوبة السائل ، وأملأ الحقنة وأحقن بها ذراعى وأنا أرتجف بنشوة غلابة .

وبعد الدقائق العشر كنت أجلس فى مكانى من الجهاز ، وأضغط على المفتاح لأدخل مرة أخرى فى تلك الغيبوبة المسحورة.

وكانت كرابيج حقيقية هذه المرة تلك التى نزلت على ظهرى العارى .. وأنا أدير أنا وعشرات من العبيد رحى معصرة زيت ..

متى وكيف .. ولمَ .. جاءوا بى إلى ذلك المكان ؟

وفى أى عصر من عصور التاريخ الغابرة .

ومَنْ هو السيد الذى يتخطر بيننا بحلة موشاة بالقصب ويدفعنى فى ظهرى صارخا .. اشتغل يا كلب .

يا إلهى .. ولكنى لست إنساناً ؟

أنا ثور وعلى عينى عصابة .

وأنا أخور كالثيران .

وأنا أمشى على أربع .

وأنا لى حوافر .

وأنا آكل التبن .

وجلدى سميك . وإحساساتي بليدة . ولا أشعر بفارق يذكر بين لذْع كرباج وضرب عصا .

واهتماماتى فى الدنيا قليلة . أن آكل وأشرب وأواقع الأنثى . أى أنثى . وذاكرتى لا يعلق بها شىء . فأنا لا أذكر شكل أولادى

وأنا لا أحزن ولا أفرح . وإنما أجوع وأشبع على أكثر تقدير .

وبعد الشبع أنام .

وهو دائماً نوم عميق .

لا أحد منكم جرب نوم الثور .

لو جربتموه لتمنيتم أن تكونوا ثيراناً .

إنه لشيء فريد . ذلك النوم الذى يتحول فيه الواحد منا إلى قالب طوب .

إن قلوبنا تقشعر حينما نتصور ذبح ثور . ولكنه ليس أمراً مؤلماً بالقدر الذى نصوره .. إن ألم الضرس أشد منه .

إن ما أحسست به ذات يوم حول عنقى حينما ذبحونى كان ألماً بليداً لم يدم إلا فترة قصيرة .. ثم انتهى كل شىء .

لا لم ينته .. فلا شىء ينتهى فى ذلك العالم .. أبداً .

فهأنذا مرة أخرى أعيش .

لست ثورا هذه المرة .

ولا أعرف بالضبط مَنْ أنا .

كل ما أعرفه أنى فى غابة ، وأن الغابة مليئة بالأشجار ، وأن الأشجار هائلة الحجم ، وأن الأرض تغطيها المستنقعات .

مستنقعات .. مستنقعات فى كل مكان .

ولا صوت حولى سوى صوت الرياح .

والأمطار تسقط بغزارة ، والجو يقطر بالرطوبة .

ومياه المستنقعات دافئة ، ويخرج منها من وقت لآخر غازات

فسفورية ، وأوراق الأشجار غريبة الشكل أشبه بأوراق السرخس المنقرضة .. ولا توجد مخلوقات .

ولا شيء يذكر يحدث حولى .

والزمن يمضى بطيئاً بطيئاً .. وكأنه لا يوجد شيء اسمه زمن .

وعندى إحساس رهيب بالخوف .

يا إلهى .. إنى شجرة .

لعلها مئات السنين تلك التى كانت تمضى ، لأن ستار الضباب عاد فانسدل على المنظر كله مؤذنا بانتهاء التجربة .

وبدأت أفيق من جديد على مكانى من الكرسى فى معمل دميان. وقد انقضت نصف الساعة .

كانت تجربة عجيبة .

●●●

تركت الجهاز ..

وجلست أكتب مذكراتى وأنا ألهث خشية نسيان ما رأيت ..

كنت أريد أن أسجل كل دقيقة عشتها فى ذلك العالم المسحور .

ولاحظت بجنب عينى وأنا أكتب أن السائل لم يبق منه إلاّ نصفه .

ولاحظت ملاحظة أخرى أفزعتنى .. أن النصف الباقى من السائل قد تغير لونه من الأزرق إلى الأخضر .

ليس اللون فقط .. بل الرائحة أيضاً .

لم تعد له رائحة الثوم .

لقد أصبح شيئا آخر .

لقد فات الوقت .. ولم يعد من الممكن معرفة تركيبه .

لقد تحلل إلى مركب جديد .

ولا شك أن خواصه قد تغيرت أيضا .

وكان خاطراً مفزعاً أن أتصور أنه لم يعد فعالاً ، وأنه لم يعد من الممكن أن يؤثر فى المخ كما كان يؤثر فى الماضى ، وأن العودة إلى ذلك العالم المسحور قد غدت مستحيلة .

وما بقى لى من عمر سوف أقضيه سجين هذه الدنيا المفلسة .

لم يعد هناك مخرج .

لن أجد مهربا من هذا العالم الغليظ .

لن أستطيع التحليق خارج الزمان والمكان .

كان تصديق هذا الخاطر شيئا فوق احتمالى .

وأسرعت أملأ الحقنة وأحقنها فى ذراعى .

كنت أريد أن أطمئن .

●●●

كانت هذه آخر ورقة كتبها الدكتور م . داود فى مذكراته .. فقد عُثر عليه بعد ذلك بساعات ميتاً فى معمل دميان .

وكان المعمل يحترق إثر شرارة كهربائية مجهولة المصدر ، وكل الأجهزة قد اشتعلت فيها النيران .. لم يبق منها إلا هياكل فحمية .

وقال الطبيب الشرعى الذى فحص البقايا المحترقة فى تقريره

عن مذكرات الدكتور م . داود .. إنها مذكرات عجيبة .

وحينما سأله وكيل النيابة :

– ماذا تعنى بقولك إنها مذكرات عجيبة ..

ظهرت علامات الحيرة على وجه الطبيب وأردف قائلا :

– كل ما هو مكتوب فى هذه المذكرات عن الجسم الصنوبرى .. وعن الحيوية فى البراعم ، وفى خلايا الجنين ، وفى غدد العنكبوت والأكتوميسين ، يمكن أن يكون صحيحا من الناحية العلمية ولكن .

– ولكن ماذا ؟

– ولكن الأمر كله يبدو غير معقول . هل يمكن أن تتصور أنك تعيش حياة أبدية ؟

وبدا الارتباك على وجه وكيل النيابة وأجاب فى صوت خافت :

– نعم إنه شىء غير معقول . إنه الجنون بعينه .

ثم أردف وقد خفت صوته أكثر :

– ولكن . مَنْ يدرى . وهل نعرف نحن كل شىء فى هذه الدنيا. إن كل ما نعيشه بضع سنوات فى زمن لا أول له ولا آخر .

ماذا نكون نحن فى عمر الدنيا حتى ندَّعى الإحاطة بكل شىء.. هذه الدنيا كلها طلاسم .

كلها طلاسم .

رقم الإيداع
٢٠٠٣/٥٠٥٧
الترقيم الدولى
977 - 08 - 1101 - 7


أخبار اليوم
قطاع الثقافة


الأعمال الكاملة
للدكتور
مصطفى محمود


14
6 222007 800016